الزمانُ في المجتمعاتِ الدينيّة

أحمـــد ماجـــد[1]

منـذ أُوجدَ الإنسانُ على هـذه الأرض، أخَذَ يتأمَّلُ في كلِّ تفصيلٍ فيهـا، فرأى الأيّامَ تجري متلاحقـةً تنقلـه من آنٍ إلى آخر، وهـو عاجزٌ عن ضبطِها أو التحكُّم بهـا، وهذا ما دَفَعَهُ إلى التفكيرِ العميقِ بمحتواها. لم يكن هذا المحتوى مُنعزلًا عن رؤيةٍ كونيَّةٍ أكثرَ عمقًا. لذلك، عندَ تحليلـه، لا بدّ مـن مَوضَعَته ضمنَ سياقاتٍ أكثرَ خصوصيّة، وهـذا البحث يسعى إلى عرضِ مفهومِ الزمنِ كما رأتهُ المجتمعاتُ الدينيّةُ المتعدِّدة.

منهجيّةُ البحث

يُشكِّلُ الزمانُ بُعدًا معرفيًّا في المنظومات والمجتمعات الدينيّة، فهو يتعدّى كونَهُ حالةً فيزيائيّةً إلى وسيلةٍ لفهمِ العالمِ والكونِ وتفسيرِ سببِ وجوده. من هنا تتأتّى أهمّيّةُ بحثه، والتعاملِ معه بجدّيـة. فجميعُ الديانات نظرت إلى الزمانِ ونظَّرَت له من خلالِ حديثها عن الخَلْقِ وكيفيّةِ حدوثِه، أو من خلال تحديدِ فتَراتٍ زمانيّةٍ للقيامِ بطقوسٍ مُحدّدة.

فهـذا البحثُ يذهبُ باتِّجـاه معالجةِ العلاقة بين الزمان والديـن، ويحاول أن يرى كيف قدّمَت المجتمعاتُ الدينيَّة هذا الموضوع. وهو لن يدخُلَ في التنظيرات الفلسفيَّة أو الصوفيَّة أو الكلاميَّة في الديانات، إنّما سيكتفي بالطُّروحات العامّة؛ نظرةُ التقليد الدينيّ للزمان دون أيِّ تفسـير. لذلك كان لا بُدَّ من اعتمادِ المنهج الوصفيّ الذي يحاولُ أن يأخذ الظاهرة كما تجلَّت دون التعليق عليها أو التدخُّل بمعطياتها أو حتّى مقارنتِها، لكي لا يحصلَ إسقاطٌ على الموضوع أو مصادرةٌ للمحتوى، لذا لا نراهُ يذهبُ إلى التفسيرات مهما كانت، بل يعودُ إلى النصِّ المؤسِّس.

(١) باحثٌ في معهد المعارف الحكميّة.

وعندمــا نقــولُ «المجتمعــات الدينيَّةُ»، فهــذا لا يعني الشــموليَّة، أي إنّه بحــثٌ يعالِجُ ظاهرةَ الزمان في جميعِ الديانات، ولكنّه اختار مادَّتهُ ضــمن نطاقين، الأوّلُ وهو الديانات الوحيانيَّة المتعارف عليها، والّتي تندرِجُ ضــمن السياق الإبراهيميّ، أي الإسلام والمسيحيَّة واليهوديَّة. والثاني هو الديانات القديمةُ كالبابليَّة والزرادشــتيَّة والهندوسيَّة. وهذا الاختيار لم يكن عشوائيًّا، إنّما جاء في إطار توسيعِ السياقات الدينيَّة وتنوّعها، حتّى يستطيعَ القارىء أن يتلمَّس أنواعًا متعدِّدةً من الديانات، ويتفهَّم كيفيَّة تعاطيها مع فكرةِ الزمان.

١. الزمانُ لغةً واصطلاحًا

١.أ. الزمنُ لغةً

يُعتَــبَرُ لفــظُ الزمان من الألفــاظِ الفريدة في اللّغــة العربيَّة، الّتي لا نَجِدُ مثيــلًا لها في اللغات الساميَّة الأخرى، فهو يثيرُ الكثيرَ من الالتباسِ الناتجِ عن طبيعته الذاتيَّة[٢] المرنة. هذه الفرادةُ، جعلتهُ يُنتجُ حقلًا دلاليًّا واســعًا بمعنى الفعل «أبَّد، دَهر، مدَّ، امتدَّ، حان، وقَّت» فمعنى دهر أي أصــابه الدهر، وزمِنَ أي أصابته عاهة أو ضَــعف... وكذلك بمعنى الاسم، مثل «الدهر والأبد والحين والسرمد والمُدَّة والوقت والآن». وهذه الدلالات اللّغوية[٣] المتعلِّقةُ بالزمان، تذهــبُ إلى تحديد فعاليَّته ضــمنَ وعاءٍ وجــوديٍّ أو عالمٍ مَعيش، وهو ما ينعكس توسُّــعًا في الحقــلِ الدلاليِّ الناتجِ عــن التفرقة بين أنواعٍ متعدِّدةٍ من الزمان بحســب تتالي الوجودِ عليها وكيفيَّةِ حضورِه فيها. من هنا جرى تقسيمُ الزمان إلى نوعين:

(٢) لم يلحظ المعجم العربيّ التفريقَ بين لفظَي الزمن والزمان، فالقدماءُ استخدموا هذين اللفظين بمعنًى واحد، فهو بالنسبة لهم، «اســمٌ لقليــل الوقت وكثيره» (انظر، ابن منظور، **لســان العرب** (بــيروت: دار احياء التراث العربيّ)، كمــا انظر، الجوهريّ، **الصحاح**، الجزء ٥، الصــفحتان ٢١٣١ و ٢١٣٢، حيث يقول، «الزمن والزمان، 'اســمٌ لقليل الوقت وكثيره، ويُجمَعُ على أزمــان وأزمنــة وأزمُــن. ولقيتُهُ ذاتَ الزمين، تريــد بذلك تراخي الوقت'، كمــا يُقال، 'لقيتُه ذاتَ العــويم، أي بين الأعوام'. الكســائيّ، 'عامَلته مزامنةً من الزمن'، كما يقال، 'مشــاهرةً من الشهر'. والزُّمانة، 'آفةٌ في الحيوانات. ورجلٌ زمن، أي مبتلى بين الزمانة'. وزمان، بكسر الزاي، 'أبو حيٍّ من بكر، وهو زمان بن تيم الله بن ثعلبة بن عكابة بن صعب بن علي بن بكر بن وائل. ومنهم الفند الزمانيّ'. أمّا المعجميَّةُ الحديثة، فذهبت إلى الفصل بينهما باعتبار الزمان، 'كمّيَّةً رياضيَّةً من كمّيّات الوقت تُقاسُ بمقاييس مُعيّنة كالثواني والدقائق والســاعات'، والزمنُ، 'مصــطلحٌ نحْويّ يُحدِّد معنى الصِّيَغ المفردة في السياق' وبناءً على هذه التفرقة يمكن أن نستعملَ لفظ الزمن tense مصطلحًا لتحديد الحدث المرتبط بالبُنية الصَّرفيَّة أو التركيبيّة، ونستعمل لفــظ الزمان time مصــطلحًا لتحديد أوقات الزمان الدلاليّ والمُعجميّ (تمّام حَسّــان، **العربيّة، مبناهــا ومعناها** (القاهرة: الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، ١٩٧٣)، الصفحة ٢٤٢).

(٣) حسام الدين الألوسي، **الزمانُ في الفكرِ الدينيّ والفلسفيّ القديم** (بيروت: المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر، ١٩٨٠)، الطبعة الأولى، الصفحة ١٤.

١.أ.١ الزمنُ المُبهَم

وهــو الزمنُ الذي لا يرتبطُ بتحديداتٍ صــارمةٍ يمكــن الدلالةُ عليها، وهو يُقسَّــم بذاتِه إلى قسمين:

١.أ.١.١ الزمنُ المُبهم المُطلق

وهــو الزمنُ المنفلتُ من قيودِ التحديد، وهــو يتألَّفُ من الدهر، والأبد، والأزل. نكون أمام الدهر حين ينفتحُ الزمان على المطلق، وهذا ما عبَّر عنه «ابن سيدة» عندما قال، «الدهرُ مُدَّةُ بقاءِ الدنيا أي انقضــائها»، وقيلَ دهرُ كلِّ قومٍ زمانُهم، وفي الحديث، «لا تسبُّوا الدهر، فإنّ اللهَ هو الدهر». ويستطردُ قائلًا،

> ليس الله هو الدهر، تعالى عن ذلك، لأنّ الدهرَ عَرَضٌ وليس ربُّنا عَرَضًا، وإنّما أرادَ أنّ ما تنسبونه إلى الدهر إنّما هو من فعل الله عزَّ وجلّ[٤]. وحتّى الّذين قرنوا بين الزمان والدهر، عبَّروا عنه وكأنّه الزمن المنفتح دون تحديد.

وعندما يتعلَّق الأمرُ بالزمن المطلق في المســتقبل، يصــبحُ الزمنُ الأبدَ. وقالت الأعراب، «أبد المكانُ يأبد أبودًا أقام به ولم يبرَحه» وقالوا، «وقَفَ الرجل أرضَهُ وقْفًا مؤبَّدًا» إذا جعلها حبْسًا لا تُباع ولا تُورَّث، والتأبيد التخليد، قالت الأعراب، «لا أفعل ذلك أبد الأبيد أو أبد الآباد»، كما قالت، «لا أفعلُهُ دهرَ الداهرين»، أي أبدًا[٥]. أمّا في حالِ تعلُّقِها بالزمن المطلق في الماضــي، فيتحوَّلُ الزمنُ إلى الأزل، واستعملته الجماعةُ العربيَّة للدّلالة على ما لا بدايةُ له في أوَّله كالقدم، مع مراعاة أنّ الأزل أعمُّ من القِدَم[٦]. هذا، وأُشــيرَ إلى تتالي الزمان وتعاقُبِه ودوامِــه بلفظ السَّرْمَد. وهذه الأزمنةُ مبهمةٌ لا يعرف الإنســانُ حــدًّا لها، فهي متعاليةٌ على وجودِه، ولعلَّ هذا ما جعل الرسول صلّى الله عليه وآله وسلَّم يقاربه للدّهر.

١.أ.٢.١ الزمن المبهم المحدَّد

يتحــوّل الزمن نفسُــه إلى وقتٍ عندما يقترِنُ بمقدارٍ مُبهم محــدَّدٍ من الزمان، ويقول أبو هلال العسكريّ،

> الوقتُ يدلُّ على نقطٍ معيّنةٍ أو مواضــعَ ثابتةٍ في خطِّ الزمان الممتدّ «تقول، 'وقتُ انتصاف الليل،

(٤) انظر حسام الدين وكريم زكي، **الزمان الدلاليّ** (القاهرة: دار غريب، ٢٠٠٢)، الصفحتان ١٢٠و١٢١.
(٥) **الزمان الدلاليّ**، مصدر سابق، الصفحة ١٢١.
(٦) انظر، **لسان العرب**، مصدر سابق، مادّة زس؛ مادّة أزل.

أو وقت انتصــاف النهار' فالوقت واحد، وهو المُقدَّرُ بالحركة الواحدة من حركات الفلك، وهو يجري من الزمان مجرى الجزء من الجسم، فالزمانُ يساوي أوقاتًا متواليةً مختلفةً وغير مختلفة، لهذا يوصَفُ الزمانُ بالقصَر والطول ويوصف الوقتُ بذلك، فتبيّنَ من ذلك أنَّ الوقت أو الأوقات في علم الفلكِ عبارةٌ عَن نقاطٍ معيّنةٍ من الزمان(٧).

ويتحــوّلُ الزمنُ المُبهَم المحدَّد إلى حين. يقول الفــرّاء، «الحينُ هو مدَّةٌ أطولُ من الوقت وأفســحُ وأبعد»[٨]. وهذا الزمن، وعلى الرغم من حدِّه، بقي مطلقًا لا يمكن أن يُشــارَ إليه، وتحديدُه بدقَّة. ويتألَّف من حقل دلالي واسع، يتكوَّن من العناصر التالية، «الوقت (الذي سبق أن تحدَّثنــا عنه)، الحين، الأوان[٩]، العهد[١٠]، الحقبة[١١]، العصر[١٢]، الـمُدَّة[١٣]، الملاوة[١٤]، البرهــة[١٥]، الفترة[١٦]، الطَّــور[١٧]، العُمر[١٨]، الأمد[١٩]، الأجــل[٢٠]، القرن[٢١]، الأُمّة[٢٢]،

(٧) أبو هلال العسكريّ، **جمهرة الأمثال**، تحقيق محمّد أبو الفضل ابراهيم (دون ناشر، ١٩٦٤)، الصفحة ٤٢.

(٨) أبو حيان التوحيديّ، **الهوامل والشوامل**، تحقيق أحمد أمين (القاهرة، ١٩٥١)، الصفحة ٢١.

(٩) الأوان مثل الحين. قالت العرب، «أوان البرد، 'أي وقتُهُ، وجاء أوان التمر أي زمانه المختصُّ به'(انظر، **لســان العرب**، مصــدر سابق، مادّة 'أون').

(١٠) يعني به الزمانَ غير المحدَّد بحدٍّ ذاته، وقد يتحدَّد بالاقتران بصفة أو شخص وقيل «إنَّ العهد ما ذهب من الزمان، والمعهود ما كان بالأمس، والموعود ما يكون في الغد» (انظر، **لسان العرب**، مادّة «**عهد**»).

(١١) قــال الفرّاء، «الحقب ســنة...» قال ابن عباس، «الحقب الدهر»، وقال عبد الله ابن عمر وأبو هريرة، «ثمانون ســنة»؛ وقال الحسن، «سبعون»؛ وقيل، «سنة بلغة قريش»؛ وقيل، «وقت غير محدود»؛ قال أبو عبيدة، «والمعنى ﴿لا أبرح حتّى أبلغ مجمع البحرين﴾ إلى أن أمضي زمانًا معه فوات مجمع البحرين». أنظر، أبو حيّان، أبو عبد الله، محمّد بن يوسف، **التفسير الكبير المُسمّى بالبحر المحيط**، (الرياض، ١٩٧٠)، الجزء ٦، الصفحة ١٤١.

(١٢) العصــر وهــو الطرف من الزمن، وقد جاء في الحديث، «حافظوا على صــلاة العصرين، أي صــلاتَي الفجر والعصر، سُــمِّيا بالعصرين لأنّهما يقعان في طرفي العصرين وهما الليل والنهار». (انظر، ابن الأثير، أبو السعادات مجد الدين بن المبارك، **النهاية في غريب الحديث**، تحقيق محمود الطناحي وطاهر الزاوي (بيروت، ١٩٥٣)، الجزء ٣، الصفحة ٢٤٦).

(١٣) قدرٌ من الزمان طالَ أو قصُرَ والجمعُ مُدد، واللفظ مأخوذٌ من المدّ، وهو الطول، تقول مدَّ الله في عمره أي جعل حياته طويلة (انظر، **لسان العرب**، مادّة «**ملو**»).

(١٤) قدرٌ من الزمان طالَ أو قصُرَ مثل المدّة والبرهة بكسر وفتح وضــمّ الميم ويقولون أيضًــا ملوة بكسر وفتح وضــمّ الميم.بمعنى مدّة من العيش أو حين من الدهر (انظر، أبو حيّان، أبو عبد الله، محمّد بن يوســف، **التفســير الكبير المُســمّى بالبحر المحيط** (الرياض، ١٩٧٠)، الجزء ٦، الصفحة ١٩٥.

(١٥) يعني الزمن المبهم والطويل بضمّ الباء وفتحها، تقولُ، «أقمت عنده برهةً» أي مدّة طويلة من الزمان (انظر، **لسان العرب**، مادّة «**بره**»).

(١٦) يعنــي الزمــان المعترض بين وقتــين وقيل، «الفترة هي الزمان بين كلّ نبيّين»، وهي.بمعنى الســكون (انظر، **لســان العرب**، مادّة «**فتر**»).

(١٧) يعني الحال أو الحدّ بين الشيئين (انظر،**لسان العرب**، مادّة «**طور**»).

(١٨) هو لفظ يدلّ عن مدّة عمارة البدن بالحياة (انظر، **لسان العرب**، مادّة «**عمر**»).

(١٩) يعني اللفظ غاية الزمان كالمدى... كما يعني اللفظ أيضًا عمرَ الإنسان ومن ذلك قولُهُم للرجل، «ما أمدُك؟» أي كم عمرك؟ (انظر، **لسان العرب**، مادّة «**أمد**»).

(٢٠) يعني اللفظُ غايةَ الزمان (انظر، **لسان العرب**، مادّة «**أمد**»).

(٢١) يعني اللفظ مقدارًا من الزمان، وقد اختلفوا في هذا القدر، فقيل مدَّتُهُ عشرُ ســنوات، وقيل عشرون ســنة وقيل ثلاثون، وقيل ســتون وقيل سبعون وقيل ثمانون، وقيل أربعون ســنة... وقيل القرن مائة سنة (انظر، **النهاية في غريب الحديث**، مصدر سابق، الجزء ٤، الصفحة ٥١).

(٢٢) الأمّة المدّة الطويلة، أو المدّة من الزمان، وقيل الوقت المعلوم (انظر، **لسان العرب**، مادّة «**أمم**»).

الطبقة[٢٣]»).

١.ب.٢ الزمن المُقيَّد

وهو الزمن المَعيش، المُـقيَّد بحدٍّ واضح. يمكن الاستدلالُ عليه من خلال الإشارة إلى موعدٍ محدَّد، وهو يُقسَّم إلى أنواع متعدِّدة، منها:

١.ب.٢. ١ السنةُ ودلالاتُها

يعني اللَّفظُ مدَّةَ الزمان الّتي تقطع فيها الشـمس الفلك ومقدارُها اثنا عشر شهرًا، وهو يقوم على المعجم الدلاليّ المؤلَّف من العام[٢٤]، الحول[٢٥]، الحِجَّة[٢٦]، الحِقبة[٢٧].

١.ب.٢. ٢ الفصولُ ودلالاتُها

وهو الزمنُ الذي يُميِّزُ أجزاءَ السـنة، وهو يُسـتخدَمُ للتمييز بين شيئين، وهو يتألَّفُ من الحقل الدلاليِّ التالي، «الفَصيَّة[٢٨]، الصيف، الشتاء، الربيع، الخريف».

١.ب.٢. ٣ الشهرُ ودلالاتُه

وهو بمعنى الظهور، حيث كان العرب ينتظرون الهلالَ ليشهروه، وبذلك سُمِّيَ الشهرُ شهرًا لشـهرته وبيانه، وهو يُسمَّى بأسـماء محدَّدة، ويتألَّف من الحقل التالي، «المحرَّم، صفر، ربيع الأول، ربيع الثاني، جمادى الأولى، جمادى الثاني، رجب، شـعبان، رمضـان، شوّال، ذو القعدة، ذو الحجَّة».

١.ب.٢. ٤ الأسبوع ودلالاته

(٢٣) يستعمل هذا اللفظ في اللغة العربيّة بدلالة جماعة من الناس المقترنين في زمان مُعيّن وقيل إنّ أمدها عشرون سنة (انظر، **لسان العرب**، مادّة «**طبق**»).

(٢٤) يرى أبو هلال العسـكريّ أن السـنةَ أطول من العام، فالعامُ جمعُ أيام والسنة جمع شهور (أبو هلال الحسن بن علي بن سهل العسكري، **جمهرة الأمثال**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم (د.ن، ١٩٦٤).

(٢٥) استعملت العرب اللفظ للدلالة إلى السنة والعام، وهو بمعنى التغيُّر (انظر، **لسان العرب**، مادّة «**حول**»).

(٢٦) الحجَّـة من دلالات السـنة، واللفظ مأخوذٌ من الحجّ بكسر الحاء بمعنى عمل السـنة، وقالوا حـجّ البيت بفتح الحاء لأن الناس يقصَدونه كلّ سنة ولهذا سمّت العربُ السنة حجّة (انظر، **لسان العرب**، مادّة «**حجّ**»).

(٢٧) الحقبة من دلالات السـنة، وقيل إنّها لغةُ قيس خاصّـة، ويقول البعض الحَقَب بمعنى الحزم والشـد، وبالتالي هو امتدادٌ الأيام وتَسلسلها خلال السنة (انظر، **التفسير الكبير المسمّى بالبحر المحيط**، مصدر سابق، الجزء ٦، الصفحة ١٤١).

(٢٨) وهو يُستعمَلُ لدلالة الخروج من البرد إلى الحرّ ومن الحرّ إلى البرد (انظر، **لسان العرب**، مادّة «**فصى**»).

الأسـبوعُ جمـاع الأيَّام السـبعة، «الأحد، الاثنين، الثلاثـاء، الأربعـاء، الخميس، الجمعة، السبت».

١.ب الزمنُ اصطلاحًا

توسُّعُ الحقلِ الدلاليِّ للزمان، جَعَلَ منه مصطلحًا غامضًا مضطربًا، متعلِّقًا بالتيّار الذي ينتمي إليه المُعَرِّف، كما أنّ هذا الأمر جعل من الاستحالة تعريفُهُ بذاته بعيدًا عن تعريفِ الكلمات المفتاحيَّة الّتي يتألَّفُ منها الحقل الدلاليّ. يقول الجرجانيّ، «إنَّ الزمانَ هو مقدار حركة الفلك عنـد الحكماء، أما عند المتكلِّمين فهو عبارةٌ عن متجدِّدٍ معلومٍ يُقدَّر به متجدِّدٌ آخرُ موهوم. كما يُقال، 'آتيك عند طلوع الشمس'، فإنّ طلوع الشمس معلومٌ، ومجيئه موهوم، فإذا قُرِنَ بذلك المعلوم زال الإبهام»[٢٩]، وهنا أصبحَ الزمانُ، من جهة، عبارة عن حركة لا قيمةَ ذاتيَّةَ لها، ولا يمكن للإنسـان أن يتعرَّف عليها بذاتها. ومن جهةٍ أخرى هو وسـيلةُ إيضـاحٍ لأمرٍ موهـوم. وقـال أبو البقاء الكفويّ، «الزمان عبارة عن امتدادٍ موهومٍ غير قارِّ الذات مُتَّصـلِ الأجزاء»[٣٠]. ويُسـمَّى الزمانُ الوقتَ عندما يدلُّ على ما، «يَـرِدُ علَى العبد، وينصرِفُ فيه، ويمضيه بحُكْمِهِ خوفٌ أو حزنٌ أو فرحٌ»، ولذلك قيل، «الوقتُ سيفٌ قاطع لأنّه يقطعُ الأمرَ بحُكمـه». وقد يُراد بالوقت ما حَضَرَ من الزمان المُسـمّى الحال. وقد روى القشـيريّ عن أستاذه الدقَّاق، «الوقت ما أنت فيه، فإن كنت في الدنيا فوقتك الدنيا، وإن كنت في العقبى فوقتك العقبى»[٣١]، وهو في هذا التعريف يجعل الوقت حالةً وُجوديَّة.

ويُسـمّى الزمانُ الدهر، عندما يُصـبح اسـمًا لمُدَّة العالم من مبدإ وجودِهِ إلى انـقضـائه، ويُسـتعارُ للعادة الباقية ومُدَّة الحياة، وهو في الحقيقة لا وجودَ له في الخارج عند المتكلِّمين، لأنَّه عندَهُم عبارةٌ عن مقارنةِ حادثٍ لحادث، والمقارنةُ أصلٌ اعتباريّ عَدّيّ»[٣٢]؛ وعند ابن سـينا، «أنَّ الدهرَ هو المعنى المعقولُ من إضـافة الثباتِ إلى النفس في الزمان كلّه»[٣٣]. وعند المتصـوِّفة، «الدهرُ هو الآن الدائم الذي هو امتدادُ الحضـرة الإلهيَّة، وهو باطنُ الزمان، وبه

(٢٩) عبد القاهر الجرجانيّ، **التعريفات** (بيروت: دار الفكر اللبناني) مادّة «**زمان**».
(٣٠) أبو البقاء الكفويّ، **الكلّيّات** (بيروت: دار الرسالة) مادّة «**الزمان**».
(٣١) التهانويّ، **كشّاف اصطلاحات الفنون** (بيروت: دار صادر؛ نسخة مصوّرة عن طبعة كلكُتا، الهند، ١٨٩٢).
(٣٢) **الكلّيّات**، مصدر سابق، الصفحة ١٨١.
(٣٣) عبد الأمير الأعسـم، **المصـطلح الفلسـفيّ، رسـالة الحـدود لابن سـينا** (القاهرة: الهيئـة المصريّة العامّة للكتـاب، ١٩٨٤)، مادّة «**زمان**».

يتَّحدُ الأزل والأبد»[٣٤]. وقد يُعدُّ الدهرُ من الأسماء الحسنى[٣٥].

استنتاج

يرتبطُ الزمانُ بمجموعة من الدلالات، لا يمكن فهمُهُ بمعزلٍ عنها، فهو يتألَّفُ من حقلٍ دلاليٍّ واسع ناتج عن كيفيَّة حضورِه في الوجود. وهذا الحقلُ الدلاليُّ أدَّى ويؤدِّي إلى نقاشاتٍ عميقة في المجتمعات الدينيَّة، حيثُ تُشيرُ البنية اللغويّة له إلى بحثِ علاقة الإنسان بالوجود وموقعيَّتِه فيه، فعند معالجَتِه نجدُ أنفسنا أمامَ أزمنة متعدِّدة، تنتج عن رؤًى ومواقف، فالتقسيمات اللغويّة الّتي برزَت في النصّ، قسَّمَت الزمانَ إلى مُبهَم ومحدَّد، وأقامت داخلَ كلّ قسم فروعًا، وهذا الأمرُ نابعٌ عن كيفيّة حضور الزمان بذاته وتجلِّيه للإنسان. بمعنًى آخر، نحن أمامَ دراسة علاقة الإنسان بالزمن، وموقعيَّة الله في هذه العلاقة، وهنا نرصد:

١. **زمنٌ كينونيّ**: أوّليّ حيثُ لا شيء إلّا الله.

١. **زمنٌ بدئيّ**: هو زمنُ الخلق والإيجاد.

٢. **زمنٌ تاريخيّ**: وهو الزمنُ الذي يشمل مرحلةً تاريخيَّة محدَّدة في حياة الإنسانيَّة.

٣. **زمنٌ مَعيش**: وهو زمنٌ يعيشُه الإنسان.

وهذه الأزمنة، تنتج مجموعة من الأسئلة، يمكن وضعها في محاورَ متعدِّدة، هي:

١. **الله والزمان**، «هل الله في زمان أم مع الزمان أو قبل الزمان، أم هو لا زمانيّ»؟

٢. **الله والعالم**، «هل كان الله وحده؟ أم معه مادّة أو عالم، وعلى الأوّل، هل بينَهُ وبين العالم زمان، وما نوع سَبْقِ اللهِ للعالم أهو زمانيّ أم من نوعٍ آخر، ولماذا اختار الله زمانًا بعينِه أوجَدَ فيه العالم»؟

٣. **الله والإنسان والزمان**، «هل وجد الزمان بسبب خلق الإنسان؟ وهل الزمانُ مستقلٌّ بالنسبة إلى الإنسان، وهو مكانٌ لوقوع الحوادث؟ أو هو مقدَّس أو وسيلة تحضر من خلاله القداسة في العالم»؟

وهذا الكلام، يدفعُ إلى استحضارِ مجموعةٍ من المصطلحات الناتجةِ عن علاقة الزمان

(٣٤) **التعريفات**، مصدر سابق، مادّة «**دهر**».
(٣٥) **الكلّيّات**، مصدر سابق، الصفحة ١٨٣.

بالإنســان والعالم، منها، «الإحداث[٣٦]، والحدوث[٣٧]، الخلق والإبداع[٣٨]، القِدَم[٣٩]»... ولكنّ هذا البحث لن يدرس هذه المصطلحات، إنما سيتوجه إلى دراسة الزمن كما عرَّفته الديانات.

ثانيًا. في الديانات الوحيانيّة

عالجت الديانات الوحيانيَّة الزمنَ، وجعلته جزءًا من رؤيتها العامَّة، وربطته بسياقات محدَّدة، الأمر الذي جعله محور الكثير من الأفكار، وهذا القسم من البحث سيعالج الزمنَ في الديانات الوحيانيّة.

٢ . ١ الزمان في الإسلام

١. في القرآن الكريم

لم يرد لفظُ الزمان في القرآن الكريم، إنّما دلَّ عليه حقلٌ دلاليٌّ كالدهر، والحين، والآن، والمدّة، واليوم، والأجل، والسرمد، والأبد، والخلد، والوقت، والعصر، الليل والنهار..

١ . ٢ . ١ الدهر: ورد لفظُ الدهر في قوله تعالى، ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾[٤٠]، والدهرُ هنا عبارة عن الطبيعة المُهلِكة، وهذه الآية تظهر موقف الدهريّة، وهي فئةٌ سعت إلى إنكار البعثِ ويوم

(٣٦) الإحداث: ويُقال على وجهين، «أحدُهما زمانيّ والآخرُ غيرُ زمانيّ». ومعنى الإحداث الزمانيّ إيجادُ شيء بعد ما لم يكن له وجود في زمن سابق. ومعنى الإحداث غير الزمانيّ فهو إفادةُ الشيءِ وجودًا، وليس له في ذاته ذلك الوجود، لا بحسب زمانٍ دون زمان بل في كلّ زمان كلا الأمرين (انظر، **المصطلح الفلسفيّ، رسالة الحدود لابن سينا**، مصدر سابق).

(٣٧) الحادثُ ما يكون مسبوقًا بالعَدَم ويُسمّى حدوثًا زمانيًّا، وقد يُعبَّرُ عن الحدوث بالحاجة إلى الغير ويُسمَّى حدوثًا ذاتيًّا (انظر، **التعريفات**، مصدر سابق).

(٣٨) الإبداعُ إيجادُ الشيء من لا شيء، وقيل الإبداعُ تأسيسُ الشيءِ عن الشيء والخلقُ إيجاد شيء من شيء؛ قال الله تعالى، ﴿بديع السموات والأرض﴾ سورة **البقرة**، الآية١١٧ ، وقال، ﴿خَلَقَ الإنسان﴾ سورة النمل، الآية ٤ . والإبداعُ أعمُّ من الخلق و لذا قال، ﴿بديع السموات والأرض﴾ وقال، ﴿خلق الإنسان﴾ ولم يقُل بدع الإنسان.

(٣٩) قال الجرجاني، «القديم يُطلق على الموجود الذي لا يكون وجودُه من غيره وهو القديمُ بالذات ويُطلَقُ القديم على الموجود الذي ليس وجودُه مسبوقًا بالعدم وهو القديمُ بالزمان والقديمُ بالذات، يقابلُهُ المُحدَثُ بالذات وهو الذي يكون وجودُهُ من غيره، كما أنّ القِديمَ بالزمان يقابلُهُ المُحدَث بالزمان، وهو الذي سَبَقَ عدَمُهُ وجودَهُ سَبقًا زمانيًّا، وكلُّ قديم بالذات قديمٌ بالزمان، وليس كلُّ قديم بالزمان قديمًا بالذات. فالقديمُ بالذات أخصُّ من القديم بالزمان، فيكون الحادث بالذات أعمَّ من الحادث بالزمان، لأنّ مُقابلَ الأخصِّ أعمّ من مقابل الأعمّ ونقيض الأعمِّ من شيءٍ مطلق أخصّ من نقيض الأخصّ. وقيل القديمُ ما لا ابتداءَ لوجوده الحادث والمُحدَث ما لم يكن كذلك فكأنّ الموجودَ هو الكائن الثابت والمعدوم ضدّه. وقيل القديمُ هو الذي لا أوّل ولا آخر له» (انظر، **التعريفات**، مصدر سابق).

(٤٠) سورة **الجاثية**، الآية ٢٤.

القيامة من أجل إنكار الخالق المُدبِّر[٤١]. ووَرَدَ الدهرُ بمعنى الزمن المتطاول، كما في قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا﴾[٤٢].

١. ٢. **الحين**: وَرَدَ تسعًا وسبعين مرَّة، وجاءَ بمعنى الوقت والمدَّة، وهو يصلُحُ لجميع الأزمان كما في قوله تعالى، ﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[٤٣] أو لزمنٍ محدّد كيوم القيامة، ﴿وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾[٤٤]، ولكنَّه استُعمِلَ في معظم الأحيان بمعنى الزمان غير المحدود.

١. ٣. **الآن**: ورد لفظُ الآن سبعَ مرّات، وهي أشارةٌ إلى الوقت الذي يعيش فيه المخلوق، قال تعالى، ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾[٤٥]، وقال تعالى، ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ﴾[٤٦].

١. ٤. **المُدّة**: هي قطعةٌ من الزمان قلَّت أو كثُرَت، قال تعالى، ﴿فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾[٤٧].

١. ٥. **اليوم**: اليومُ لفظٌ يدلُّ على وقتٍ محدَّد أو غير محدَّد، وجاء عند العرب بمعنى الوقائع[٤٨]، قال تعالى، ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[٤٩]، وعادةً ما يُستخدَمُ للدلالة على الشدَّة والقسوة، لذلك سمَّت العربُ حروبَها باسم الأيَّام، فقالوا يوم ذي قار، ويوم فضّة. وعندما يريدون التشنيع على فرد أو جماعة، يقولون، «اليومُ يومُك، ولكلِّ قوم يوم». ولكنّ ابن عبّاس يوسِّع اليومَ ليشمل كلَّ واقعة حسنة أو سيِّئة[٥٠]، وإلى هذا أشار القرآن الكريم بقوله، ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللهِ إِنَّ فِي

(٤١) انظر، محمّد حسين طباطبائيّ، **تفسير الميزان**، تصحيح الشيخ حسين الأعلمي (بيروت: مؤسّسة الأعلمي، الطبعة ١)، الجزء ١، الصفحة ١٢١.
(٤٢) سورة **الإنسان**، الآية ١.
(٤٣) سورة **إبراهيم**، الآية ٢٥.
(٤٤) سورة **البقرة**، الآية ٣٦.
(٤٥) سورة **البقرة**، الآية ٧١.
(٤٦) سورة **النساء**، الآية ١٨.
(٤٧) سورة **التوبة**، الآية ٤.
(٤٨) انظر، **التفسير الكبير المُسمّى بالبحر المحيط**، مصدر سابق، الجزء ٥، الصفحة ٤٠٦.
(٤٩) سورة **يونس**، الآية ٣.
(٥٠) **البحر المحيط**، مصدر سابق، الجزء ٥، الصفحة ٩١.

ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾[٥١]، والذي فسَّره الفرّاء بقوله، «إنَّ معنى الآية 'خوِّفهم بما نزل بعادٍ وثمود وغيرهم من العذاب وبالعفو عن الآخرين'»[٥٢]. فاللفظ يدلُّ على حَدَثٍ حَدَثَ أو واقعةٍ وقعت.

١ . ٦ . **الأجل**: استُعمِل اللفظُ للدلالة على غاية الوقت ومنتهاه، قالَ تعالى، ﴿ فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾[٥٣]، المُراد بقضائه الأجلَ اتمامُه مدّة خدمته لشعيبٍ عليه السلام[٥٤]. وقال تعالى، ﴿ إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ﴾[٥٥] والأجلُ هنا بمعنى آخرِ المدَّة المضروبة[٥٦]. وقولُه تعالى، ﴿ وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾[٥٧]، وهذا يعني الأجلَ المطلقَ الذي حَكَمَ بأنّ الحيَّ يموت عنده، والأجلُ المقيَّدُ هو الأجلُ المحكوم بأنّ العبدَ يموت عندَه، إن لم يقتطع دونه، أولم يزد عليه، أولم ينقص منه على ما يعلّمُه الله من المصلحة. ﴿ والله خبير بما تعملون ﴾[٥٨]، أي عليمٌ بأعمالكم، يجازيكم بها.

١ . ٧ . **السرمد**: وهو الدائم، كما في قوله تعالى، ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴾[٥٩] أي دائمًا ﴿ إلى يوم القيامة ﴾[٦٠].

١ . ٨ . **الأبد**: استعملَ القرآنُ الكريم الأبدَ للظرفيّة، لاستغراق النفي أو الإثبات في المستقبل واستمراره، كما في قوله تعالى، ﴿ قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾[٦١]، وقوله، ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ

(٥١) سورة **إبراهيم**، الآية ٥.
(٥٢) انظر، **البحر المحيط**، مصدر سابق، الجزء ٥ الصفحة ٩٦.
(٥٣) سورة **القصص**، الآية ٢٩.
(٥٤) **تفسير الميزان**، مصدر سابق، الجزء ١٦، الصفحة ٣١.
(٥٥) سورة **البقرة**، الآية ٢٨٢.
(٥٦) **تفسير الميزان**، مصدر سابق، الجزء ٧، الصفحة ٨.
(٥٧) سورة **المنافقون**، الآية ١١.
(٥٨) الطبرسيّ، **تفسير مجمع البيان**، تحقيق وتعليق لجنة من العلماء والمحقّقين الأخصّائيّين (بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، الطبعة ١، ١٩٩٥)، الجزء ١٠، الصفحة ٢٦.
(٥٩) سورة **القصص**، الآية ٧١.
(٦٠) انظر، **تفسير مجمع البيان**، مصدر سابق، الجزء ٧، الصفحة ٤٥٤.
(٦١) سورة **المائدة**، الآية ٢٤.

هَذِهِ أَبَدًا ﴾[٦٢].

١. ٩. **الخُلد**: وَرَدَ بمعنى السرمد أي دوام البقاء، قال تعالى، ﴿ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾[٦٣].

١. ١٠. **الليل والنهار**: وهي دلَّت على التتابع والتتالي، قال تعالى، ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[٦٤]. قال تعالى، ﴿ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[٦٥]، وهذا الزمان هو المَعيش.

يُضافُ إلى هذه الألفاظ الّتي شكَّلت حقلًا دلاليًّا يتعلَّق بالزمان، بعضُ التفصيلات المرتبطة بالعلاقة بين الله وإبداع الكون، وكيفيَّة حصول هذا الأمر، والمدَّة الزمانيَّة الّتي استغرقها، ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾[٦٦]، ويعتبر الطبرسيّ هذا التحديدَ الزمانيَّ عبارةً عن إخبار، مع العلم أنّ الله بإمكانه أن يوجدَ العالمَ ببُرهة[٦٧]، ويقولُ الطوسيّ، «خبَّر الله تعالى أنَّه خَلَقَ السماوات والأرض وأنشأهما في ستَّة أيام، وإنَّما خلقَهُما في هذا المقدار من الزمان مع قدرته أن يخلُقَهما في أقلِّ من لمح البصر لِيُبيِّن بذلك أنَّ الأمور جاريةٌ في التدبير على منهاج، ولِما علِمَ في ذلك من مصالح الخَلق من جهة اقتضاء أن يُنشئها على ترتيب يدلُّ على أنَّها كانت عن تدبير عالم بها قبل فعلها مثل سائر الأفعال المُحكمة»[٦٨]. وقال تعالى، ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ * ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ * فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا

(٦٢) سورة **الكهف**، الآية ٣٥.
(٦٣) سورة **يونس**، الآية ٥٢.
(٦٤) سورة **البقرة**، الآية ١٦٤.
(٦٥) سورة **البقرة**، الآية ٢٧٤.
(٦٦) سورة **الأعراف**، الآية ٥٤.
(٦٧) **تفسير البيان**، مصدر سابق، الجزء ٥، الصفحة ٢٤٥.
(٦٨) الشيخ الطوسيّ، **التبيان في تفسير القرآن**، تحقيق وتصحيح أحمد حبيب قصير العاملي (قم: مكتب الإعلام الإسلاميّ) الجزء ٥، الصفحة ٤٦٠.

وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾(٦٩). ومن الأخبار المتعلّقة بالزّمان الواردة في القرآن الكريم، قولُهُ تعالى، ﴿ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾(٧٠).

استنتاج

إذا أردنا أن نُصنِّف الآيات القرآنيَّة المتعلِّقة بالزمان سواءً من الألفاظ المباشرة أو من خلال المعاني، الّتي تشير إليه، يمكننا أن نصل إلى التصوُّرِ التالي:

١. **الزمن الكينونيّ**: وهو الزمنُ الإلهيّ، الذي لا يدركهُ الإنسانُ إلّا من خلال الخَبَرِ الوارِدِ من قبل الله إلى الناس والمتمثِّل بالوحي المبارك، فالله محيطٌ بكلِّ شيءٍ، والزمنُ جزء من الأشياء، وإلى هذا أشار الله تبارك وتعالى في قوله، ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾(٧١)، ويشرح العلّامة الطباطبائيّ هذه الآية،

> لـمّا كان تعالى قديرًا على كلِّ شيءٍ مفروض، كان مُحيطًا بقدرته على كلِّ شيءٍ من كلِّ جهة. فكلُّ مـا فُرِضَ أوّلًا، فهو قبله، فهو الأوّل دون الشـيء المفروض أوّلًا، وكلُّ مـا فُرِضَ آخرًا فهو بعده لإحاطة قدرته به من كلِّ جهة، فهو الآخر دون الشـيء المفروض آخراً، وكلُّ شـيء فُرِضَ ظاهرًا فهو أظهرُ منه لإحاطة قدرته به من فوقه فهو الظاهر دون المفروض ظاهرًا، وكلُّ شـيء فُرِضَ أنّه باطـنٌ فهو تعالى أبطنَ منه لإحاطته به من ورائه فهو الباطن دون المفروض باطنًا فهو تعالى الأوّل والآخر والظاهر والباطن على الإطلاق وما في غيره تعالى من هذه الصفات، فهي إضافيّة نسبيّة. وليست أوّليّتُهُ تعالى ولا آخريّته ولا ظهورُه ولا بطونُه زمانيّةً ولا مكانيّةً بمعنى مظروفيّته لهما وإلّا لم يتقدّمهما ولا تنزّه عنهما سبحانه بل هو محيطٌ بالأشياء على أيِّ نحو فُرِضَت وكيفما تُصُوِّرت. فبان ممّا تقدَّم أنَّ هذه الأسـماء الأربعة، الأوّل والآخر والظاهر والباطن من فروع اسـمه المحيط وهـو فرعُ إطلاق القـدرة. فقدرتُهُ محيطةٌ بكلِّ شـيء ويمكن تفريع الأسـماء الأربعة على إحاطة وجوده بكلِّ شـيء فإنّه تعالى ثابتٌ قبلَ ثبوتِ كلِّ شـيء، وثابتٌ بعد فناء كلِّ شيءٍ وأقربُ من كلِّ شيءٍ ظاهر وأبطنُ من الأوهام والعقول من كلِّ شيءٍ خفيٍّ باطن(٧٢).

٢. **زمـن الخلـق والإبداع**: يلاحَـظُ أنَّ الكثير من الآيات قد احتوت علـى أفعالٍ تدلُّ على الخلق والإبداع، منها: جَعَل، بنى، رَفَع، خَلَق، مدَّ، طحا، صـوَّر، نَصَـبَ، سـوَّى، أرسى، وكذلك نجِدُ اسـمَ الفاعل مصـوِّر، بارىء، فاطِر، خالِق، وتدلُّ هذه الآيات على كيفيَّة خلقِ

(٦٩) سورة **فُصّلت**، من الآية ٩ إلى الآية ١٢.
(٧٠) سورة **السجدة**، الآية ٥.
(٧١) سورة **الحديد**، الآية ٣.
(٧٢) **تفسير الميزان**، مصدر سابق، الجزء ١٩، الصفحة ١٤٥.

الله للعالم، ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾[٧٣]، وهذه الآيـات الّتي يظهـر فيها الزمن المحـدَّد والمتعلّقةُ بالخلقِ، أوجدت مشـكلةً فكريّة حادَّة في الفكر الإسـلامي، ولحلِّ هذا الإشـكال لجأ بعضـ المفكّرين إلى القولِ بـأنَّ الزمن خُلِق مع خَلقِ العالم. وهذا هو موقف الغزّاليّ وغيره من الفلاسفة القائلين بالحدوث الزمانيّ. والبعضُ فسَّروا الآيـات بمعناها الحرفيّ مؤكّدين أنهـا تدلُّ على وجودِ الزمان قبـل وجود العالم مثل الفارابيّ وابن رشـد. ويـرى ابن تيميَّة أنَّ هذه الآيات تدلُّ على أنَّـه قبلَ الزمان الذي نعرِفُه كان هناك زمانٌ آخر ومادَّةٌ أخرى، وعرشٌ، وماءٌ ودخان[٧٤].

٣. **الزمن الوجوديّ**: وهو الزمنُ الذي ابتدأ مع خلق الإنسان، وهو متعلّقٌ بدوره كخليفة لله على الأرض، وهذا ما يظهر في قوله تعالى، ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ * وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾[٧٥]، والحقُّ أنَّ المقصود بالخليفة هو خليفة الله ونائبُهُ على ظهر الأرض، كما ذهب إلى ذلك كثيرٌ من المُحقِّقين. لأنَّ سـؤال الملائكة بشـأنِ هذا الموجود الذي قد يُفسِد في الأرض ويسفك الدماء يتناسب مع هذا المعنى[٧٦].

وهذا الزمان معرفيّ، شـهِدَ من خلاله الإنسـانُ على ميثاقِ الربوبيَّة لله – عبر الأنبياء أو النوع مباشرة – أي أن لا ينسـى الإقرارَ بربوبيَّة الله تعالى[٧٧]، والحقيقة المُحمَّديَّة، الّتي تُمثِّل تمامَ الدين والإيمان. كما أنَّ هذا الزمنَ ترافَقَ مع خلقِ السنن الإلهيَّة الثابتة، الّتي وُضِعَت من أجلِ خدمةِ الخلافةِ الإلهيّة.

٤. **الزمن المُعاش**: وهو الزمنُ الذي يعيشه الإنسان، ويحقِّق من خلاله الغاية الإلهيَّة، وهو يرتبـطُ بأبعاد دينيَّة كالعبادة وإلى هذا أشـار الله تعالى في قوله، ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾[٧٨]، وهذا لا يعني غياب الأبعاد الإنسانيَّة الأخرى.

(٧٣) سورة **الحديد**، الآية ٤.
(٧٤) **الزمان الدلاليّ**، مصدر سابق، الصفحتان ٣٤ و ٣٥.
(٧٥) سورة **البقرة**، الآيتان ٣١ و٣٢.
(٧٦) الشيخ ناصر مكارم الشيرازيّ، **الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل**، الجزء ١، الصفحتان ١٥٥ و ١٥٦.
(٧٧) **تفسير الميزان**، مصدر سابق، الجزء ١، الصفحة ١٢٨.
(٧٨) سورة **الذاريات**، الآية ٥٦.

والرؤية القرآنيَّة للزمان، أدَّت إلى ولادةِ مسائل متعدِّدة، من الممكن ترتيبها على الشكل التالي:

١. **مسـألة الزمان وأقسامه**: قسَّـم القرآن الكريم الزمان إلى أنواع متعددة، وهذا الأمر كان من الأسباب الّتي حفَّزت المعرفيَّة الإسلاميَّة للتحرُّك من أجل دراسة هذا الانقسام وأثره على موضوع الخلق.

٢. **مسألة القدم والحدوث**: أدَّت هذه المسألة إلى انقسام المعرفيَّة الإسلاميَّة إلى اتّجاهات متعـدِّدة، الأوَّل يـرى أنَّ الخلـقَ كان مـن العَدَم، وهو موقـفُ المتكلِّمين وبعض الفلاسـفة كالكنـديّ؛ والثاني يرى أنّ الآيات الّتي أشـارت إلى الخلق مـن القرآن، تدلُّ على أنَّ هنالك وجودًا قبل هذا الوجود وزمانًا قبل هذا الزمان، فيكونَ الزمانُ والعالم قديمَين، وهذا الموقفُ مثَّلته المدرسـة المشَّـائيّة. وهذه المسألةُ اسـتُنتجَت من الآية القرآنيَّة، الّتي سبق وأن عرضناها والّتي تقول، ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾[٧٩].

فهذه المشـكلة كانت نقطـةَ انطلاق لمشـكلة الأزليَّة والأبديَّة ولمشـكلة العلاقة بين الله والعالم والزمان، وهي من المسائل الّتي تُثبت أصالة الفكر الإسلاميّ وفرادة قضاياه.

٣. **مسـألة التقدم والتأخر**: وهنا أُثيرت مسألةٌ دقيقة، فهل التقدُّم بالذات أم بالزمان أم بالعليَّة أم بالشرف والمرتبة...

٢. في الحديث الشريف

ورد لفظُ الزمان في الحديث الشريف مرتبطًا بالكثير من الأحيان بالإشارة إلى انتهائه. وهذا الزمان خلاصـيٌّ يُنْشَرُ فيه الخير والسلام على الأرض بعدما امتلأت ظلمًا، هذا الظلم الذي يُفْقِدُ الزمن قيمَتَهُ وبركَتَهُ. فعن النبيّ محمّد صـلّى الله عليه وآله وسـلّم في وصـفه، «يتقاربُ الزمان وينقُص العملُ ويُلقى الشـحَّ ويكثُر الهَرج، قالـوا وما الهرج، قال القتل القتل»[٨٠]؛ وعنه صـلَّى الله عليه وآله وسـلّم قال، «لا تقومُ السـاعةُ حتّى يتقاربُ الزمان فتكون السـنة كالشـهر ويكون الشـهر كاليوم ويكون اليوم كالساعة وتكون السـاعة كضرمةِ السُّعفة في

(٧٩) سورة **الحديد**، الآية ٤.

(٨٠) البخـاريّ، **صـحيح البخاريّ** (بـيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، طبعة بالأوفسـت عن طبعـة دار الطباعة العامرة بإستانبول)، الجزء ٧، الصفحة ٨٢.

النـار»[٨١]. ونستنتج من الأحاديث أنَّ هناك علاقة قويَّة بين الزمن ومحتواه، فالزمان لا يكتسبُ حقيقتَهُ الوجوديَّة القيِّمة إلّا من خلال ما يحتويه، فكلّما عمَّ الظلمُ والاستبداد وحادَ الناس عن الصراط انفلتَ الزمن من عقاله، وأخَذَ شكلًا جديدًا، يدلُّ على فقدان قيمته. وبالمقابل، في ذلك الزمان، يفتح الله قلبَ عبده المؤمن، فعَن النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلَّم، «إذا اقترب الزمانُ لم تَكَد رؤيا المسلم تكذب وأصدَقُكم رؤيا أصدَقُكم حديثًا، ورؤيا المسلم جزءٌ من خمس وأربعين جُزأً من النبوَّة والرؤيا»[٨٢]. وعن أبي عبد الله جعفر الصادق عن آبائه عليهم السلام عن الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم قال، «رأي المؤمن ورؤياه في آخر الزمان على سبعين جزءًا من أجزاء النبوَّة»[٨٣]. فالمؤمن يُعيدُ وصلَ الزمن بأصله الوحيانيّ، فيعيدُ فعاليَّته عبرَ الإلهام.

بالإضافة إلى ورود لفظ الزمان، احتوت الأحاديثُ النبويّةُ الكثيرَ من المسائل المتعلِّقة بالزمان، وهي ترسُم العلاقةَ بين الله والزمان، فيظهرُ الزمن المتطابق مع الرؤية التوحيديَّة، فيظهَرُ الإله الواحد الأحد الأوَّل والآخر، وهذه المرَّة من خلال ما يُمكن أن يُنتجَهُ المجتمعُ من أسئلة تتعلَّق بالعلاقة بين الله والزمن، فورَدَ عن النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم قال، «لا يزال الناسُ يسألون عن كلِّ شيء حتّى يقولوا هذا الله كان قبل كلِّ شيء، فماذا كان قبل الله؟ فإن قالوا لكم ذلك فقولوا هوَ الأوَّل والآخر والظاهر والباطن وهو بكلِّ شيء عليم»[٨٤]. وهذا لا يعني غيابَ الأحاديث الّتي تُثير بعضَ الإشكاليّات المتعلِّقة بالعلاقة بين الله والزمن، حيث رُوِيَ أنَّ الرسول صلَّى الله عليه وآله سُئِلَ، «أين كان ربُّنا قبل خلق السماوات والأرض؟» فقال عليه السلام، «كان في عماء ما فوقَهُ هواء وما تحتَه هواء»[٨٥]. وهذا الحديثُ أثارَ الكثير من اللغط في الأوساط الإسلاميَّة، حيث يظهَرُ وجود قدماء غير الله عزَّ وجل، ممّا دَفَعَ بعضَ العلماء إلى القول، «إنَّ حديث أبي رزين هذا مُختَلَفٌ فيه، وهو غيرُ معروف بين أهل الحديث». وقد تكلَّم في تأويله بعضُ أهل اللغة، فقالَ، «إنّ العَماءَ، السحابُ إنْ كان الحرفُ ممدودًا وإن كان مقصورًا، فإنَّهُ أرادَ في عما عن معرفة الناس»، كما

(٨١) مسلم النيسابوريّ، **صحيح مسلم** (بيروت: دار الفكر، طبعة مُصحّحة ومُقابَلة على عدّة مخطوطات ونسخ معتمدة)، الجزء ٧، الصفحة ٥٢.

(٨٢) **صحيح مسلم**، مصدر سابق، الجزء ٧، الصفحة ٥٢.

(٨٣) الشيخ الكلينيّ، **الكافي**، تصحيح وتعليق عليّ أكبر الغفاريّ حيدريّ (طهران: دار الكتب الإسلامية، الطبعة ٣، ١٣٦٧ هـ.ش.)، الجزء ٨، الصفحة ٩٠.

(٨٤) شهاب الدين محمود الآلوسيّ، **تفسير روح المعاني**، ضبط عليّ عبد الباري عطيّة (بيروت: دار الكتب العلمية)، الجزء ١٥، الصفحة ١٦٨.

(٨٥) ابن أبي جمهور الأحسائيّ، **عوالي اللئالي**، الجزء ١، الصفحتان ٥٤ و ٥٥.

تقول، «عميت عن الشـيء، وعن الآخر، فلان أعمى عن كذا»، إذا أشـكَلَ عليه فلم يعرِفه، وكلُّ مـا خفِي عليـك فهو عمًى عليك. ثمّ قال، «وأمّا قولُهُ صـلَّى الله عليـه وآله، 'ما فوقَهُ هـواء وما تحتَهُ هواء'، فقد ردّه قومٌ فيه، استيحاشًـا من أن يكـون فوقَه هواء وتحته هواء وهو يكون بينهما. والظاهرُ أنَّ بذلك لا تزولُ الوحشة والذي سنَح للفقير أنَّ المُراد من الحديث المعنى الثاني من العمى بالقصر، ضدّ البصر، ويرادُ به عدمُ المعرفةِ قبل خلقِ الآثار الظاهر بها، وفيهـا الآيات الدالَّة على معرفَته تعالى ويؤيِّدُه الحديثُ القدسـيّ، 'كنت كنزًا مخفيًّا فأحببتُ أن أُعـرَف فخلقتُ الخلقَ لكي أُعـرف'. وأمّا قولُهُ، 'ما فوقَهُ هواء ومـا تحتَهُ هواء' فهذا هو المرويّ لنا، وهو إشـارةٌ إلى نفي كلِّ شـيءٍ في تلك المرتبة وعبَّر عنه بالفوق والتحت، تقريبًا إلى الأذهان وخصَّـهُما دون باقي الجهات، لأنَّ ما عداهُما غير طبيعيّ، فإذا انتفيا، انتفى ما عداهُما. وفي ذلك إشـارة إلى نفي الجهة بالكليَّة وإنما خصَّ الهواء بإضـافة الجهة إليه، لأنَّه أوَّلُ الأشـياء وجوداً بالنسبةِ إلى وجودِ الأجسام، لأنَّ الماءَ حاملةُ الهواء، وإليه الإشارةُ بقولِ أميرِ المؤمنين عليٍّ عليه السـلام في بَدءِ الإيجاد، 'ثمَّ أنشـأ سُبحانَهُ فتقَ الأجواءِ وشقَّ الأرجاء وسـكائكَ الهـواء' ويريدُ به الهواءَ الـذي أجرى فيه الماء الذي كان منه بـدوُ الإيجاد، فنفى وجودَه ثمّة، ليدلّ على أنَّه لم يكن معَهُ في تلك المرتبة شيء. ويؤيِّدُهُ قولُهُ صلَّى الله عليه وآله، 'كان اللهُ ولا شيءَ معه، وكذلك هو الآن'». ولهذا قالَ أهلُ الإشارة، «إنَّ مرتبةَ الأحديَّة، هي مرتبة العمائيَّة الّتي لا يلزُمها شـيءٌ من الصـفات والأسـماء والأفعال، فهي مرتبةُ العما المُشـار إليه في الحديث، وتلـك المرتبة لا يمكن العلم بها، ولا وصـول العقول إليها، لعدم الطريـق الموصـل، فلمّا تنزَّل من تلك المرتبـة إلى مرتبة الوَحدانيّة، الّتي هي مرتبة الصـفات والأسماء والأفعال، ظهرت المُسمَّيات والأفعال وحصل بواسطتها التمييز والمعرفة»[٨٦].

يُضافُ إلى استخدام لفظ الزمان، ورودُ لفظ الدهر في حديثٍ مشهور، ويُلاحِظُ الباحث أنَّ اسـتخدام هذا اللفظَ جاءَ بمورِدِ الردِّ على ما هو شـائعٌ في المجتمع العربيِّ في ذلك الحين، والرسـول صـلّى الله عليه وآله وسـلَّم حاول تصـحيح المفهوم الخاطىء، فعمِل على الربط بين المعلول والعلَّة، ونفى اسـتقلاليَّةَ المعلول وجعلَهُ مظهـرًا من مظاهر الله الإبداعيَّة، فكان الحديثُ النبويُّ الشريف، «لا تسـبُّوا الدهرَ فإنّ الله هو الدهر»[٨٧] مكمّلًا لقوله تعالى، ﴿مَا

(٨٦) انظر، المباركفوريّ، **تحفة الأحوذيّ** (بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة ١، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م)، الجزء ٨، الصفحتان ٤٢٠ و٤٢١. هـذا الـكلام لا يعني أنّ هذا الحديث لم يُؤخَذ به ولم يرِد في المجامع الحديثيّـة، فنلاحظ أنّ أحمد بن حنبل يورده في مسنده.

(٨٧) ورد هذا الحديث في صحيح البخاريّ، ومسلم، وأبي داوود ومسند أحمد.

هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾[٨٨]، فالحديثُ يظهَرُ كأنَّ الرسـولَ يريد أن يقـول، «لا تذمّوا الذي يفعل بكم هذه الأفعال، فإنَّ الله سـبحانه وهو المعطي والمنتزع، والمغيّر والمرتجع والرائش[٨٩] والهائض[٩٠]، والباسـط والقابض... فصرّح تعالى بذمِّهم على اعتقادهم أنَّ الدهرَ يملكهم، ويُعطيهم ويسـلبهم، ودلَّ بمفهوم الكلام على أنَّه سـبحانه هو المالك للأمور، والمُصرِّف للدهور»[٩١].

استنتاج

لم تخـرج الأحاديـث النبويَّة المتعلِّقةُ بالزمن عـن الإطار العامّ، الذي رَسَـمه القرآن الكريم، فالزمانُ عبارةٌ عن معلولٍ ناتجٍ عن علَّة الخلق، وهو الله تعالى، الذي تخضـع كلُّ الأشـياء له، ولا يخضـع لهـا، فالله يتعالىً على الزمان ويحتويه، حتّى في المـورد الذي منعت الأحاديث النبويَّة الناس من سـبِّ الدهر، لم يكن ذلك بسبب قدسـيَّتِه الذاتيَّة، إنما بحُكم دلالةِ المعلول على العلَّة، بالتالي يكون سبُّ المعلول سبًّا للعلَّة.

فالزمـان من خلال هذا الفهم يُقارِب الوعاءَ الذي يحتوي الفعل الإنسـاني، أوجَدَهُ الله تعالى بسبب إيجاد الإنسان، ومن أجلِ تحقيقِ هدف الوجودِ الإنسانيّ، المتمثِّل بالعبادة، وفي هذا لا يدلُّ على البعد الفيزيائيّ فحسـب، إنما يتحوَّل إلى زمنٍ نفسـيّ واجتماعيّ ومعرفيّ، لذلك نراهُ يقصر ويتحوَّل إلى عنصرٍ متسارعٍ لا قيمة له في آخرِ الزمان في اللحظة الّتي يسود فيها الظلم والاستبداد، ويخرج الناس عن تَعاليم الشريعة.

الزمن في المجتمعيّة الإسلاميّة

لن نتطرَّق في هذا الموضع إلى التوجُّهات المعرفيَّة[٩٢] المتعلِّقة بالزمان في المجتمع الإسلاميّ، فهذا البُعد قد يسـتنفذُ قدرًا كبيرًا من هذا العمل، وسـنكتفي بالرؤية الإسـلاميَّة العامَّة كما فهمها المسلمون، حيث ارتبطَ الزمانُ بالبعد الوجوديّ للإنسان، فهو وعاء الحوادث، حيث تظهر فيه أعمالُ العباد الّتي يحاسِـبُ الله عليها، ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ

(٨٨) سورة **الجاثية**، الآية ٢٤.
(٨٩) الرائش: أي مُعطي المال والمتاع، لأنّ الريش هو المال والمتاع.
(٩٠) يُقال، «هاض العظمَ يهيضه» إذا كسَره بعد أن كان سليمًا، والمراد أنّ الله هو الذي يصيبُ الناس بالمصائب.
(٩١) الشريف الرضيّ، **المجازات النبويّة**، تحقيق وشرح طه محمّد الزيتيّ (قم: منشورات مكتبة بصيرتي).
(٩٢) المقصود بالتوجُّهات المعرفيّة الاتّجاهات الفلسفيّة والكلاميّة والصوفيّة في الإسلام.

قَدِيرٌ * الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴾[٩٣]. فالزمانُ في الإسلام هو وعيٌ وجوديّ إنسانيّ تجري فيه أعمال الإنسان؛ إنَّه منتجٌ للوعي ابتدأ بتاريخ الخلقِ والتكوين وظهورِ الموت وتمايز الخير والشرّ، ويسيرُ في اتّجاه نهايته في يوم القيامة والحساب، وهدفُهُ اختبارُ الإنسان ومعرفةُ مدى التزامه بالمهمّة الموكلة إليه كخليفة لله على الأرض، فالدنيا بالنسبة للإنسان، كما قال الإمام عليّ عليه السلام، «مزرعة الآخرة»[٩٤].

والزمانُ في الإسلام ليس بُعدًا ذاتيًّا ثابتًا، إنّما هو يخضعُ من جهة لعنصرٍ تكوينيّ يحدِّدُهُ الله تعالى، من هنا فهو يختلف بحسب إرادة الله الناظمة التكوينيَّة، وهذا ما يظهر في قوله تعالى، ﴿ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾[٩٥]، وهو خُلقَ وسُخِّرَ من أجل الإنسان، قال الله تعالى، ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾[٩٦]. ومن جهة أخرى، هو زمنٌ يرتبط بكيفيَّة إقبال الإنسان وشعوره به. قال تعالى، ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[٩٧]، فهنا الزمانُ ارتبط بشعور الإنسان، ولكنَّه لم يتطابق مع الواقع الفعليّ. نستنتجُ من ذلك أنَّ الإسلام لم يلغِ الزمن الفيزيائيّ المتمثِّل بالدقائق والساعات والأيَّام والأسابيع، ولكنّه لم يجعله مستقلًّا عن نظرته الكونيّة التوحيديّة، وعن الغاية الّتي سُخِّرَ لها، لذلك نراه يتمثّل بالأبعاد التالية:

١. **البعد المعرفيّ**: فمن خلال الزمن المُعاش «الآن وهنا» يتعقَّل الإنسانُ العالمَ الذي يعيش فيه، ويستفيد من المعطيات العلميّة الّتي تظهر له، كما تدلّ عليه الآية الكريمة، ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[٩٨]، فالزمن من خلال هذا التعاقُب يمثِّل الحركة، حركةَ الذاتِ المتوجِّهة إلى الخارج – المنتظم طبقًا للإرادة الإلهيّة التكوينيَّة. وحركةُ العالم الّتي

(٩٣) سورة **الملك**، الآيتان ١ و ٢.
(٩٤) الإمام عليّ، **نهج البلاغة**، تحقيق محمد عبده (بيروت: دار المعرفة، ١٩٨٠م)، الجزء ١، الصفحة ٢٤٠.
(٩٥) سورة **الحجّ**، الآية ٤٧.
(٩٦) سورة **إبراهيم**، الآية ٣٣.
(٩٧) سورة **البقرة**، الآية ٢٥٩.
(٩٨) سورة **البقرة**، الآية ١٦٤.

تسـعى طبقًـا لنظام دقيق لا يتغيَّر إلّا بإرادة الخالق لها. ومن خـلال العلاقة بينهُما ينتُجُ البعدُ المعرفيّ، الذي يتبدَّلُ بتبدُّل المعرفة الإنسانيَّة والظروف الّتي يعيش فيها، دون أن يعني التغيُّرُ تبدُّلَ الأصـلِ الوحيانيّ الذي تُبنى عليه المعارف لا سيّما الدينيَّة، ولعلَّ هذا ما أنتج الاجتهادَ الإسلاميّ.

٢. **البُعـد الأخلاقيّ**: الزمـنُ يتمظهرُ من خلال ما يحتويه من تعاليمَ وأخلاق، فهو يعكسُ العملَ الإنسانيّ، لذلك على الإنسان أن يعيش الحياةَ والزمان ويملأهما بالعملِ الصالح الخيِّر المتطابق مع الإرادّة الإلهيَّة. يقول تعالى، ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[٩٩]، فمن خلال هذه الآية الكريمة نلاحـظُ البُعدَ الأخلاقـيَّ للزمان، فهو وسـيلةٌ للتعبير عن إنسـانيَّة الإنسـان، وهو يتمظهر بمظهره، وينصبغ به. قال الإمام عليّ عليه السلام، « أيُّها الناس إنّا قد أصبحنا في دهرٍ عنود، وزمنٍ كنود، يُعَدُّ فيه المحسـنُ مسـيئًا، ويزداد الظالم فيه عتوًّا، لا ننتفع بما علمنا، ولا نسـألُ عمّا جهلنا، ولا نتخوَّفُ قارعةً حتّى تحلَّ بنا»[١٠٠]. وهنا يُصـوِّر الإمامُ الزمنَ بصورة الذين يعيشون فيه، فإذا به جحود، يُكثر فيه الناس الحديثَ عن المصائب الّتي تحطُّ عليهم، ولكنّهم يتناسـون النعمَ الّتي حلَّت بهم، ففيه انقلبت المقاييس فأصـبح المُحسنُ مسيئًا والظالم سيِّدًا، ونسي الناسُ العدل على الرغم من كونه أصلًا في الإسلام، وأغفلوا عن العلم والسعي إليه، وأصـبحوا سُـعداء بالجهل لا يحاولون التخلُّص منه[١٠١]، وإلى هذا أشـار الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم، «من استفتح أوَّل نهارَهُ بخير وختمه بالخير قال الله لملائكته، لا تكتبوا عليه ما بين ذلك من الذنوب»[١٠٢]. ونُقلَ عن الرسـول أيضًـا، «خير القرون القرن الذي أنا فيه، ثـمّ الذين يلونه»[١٠٣]، وهذا الخير ناتجٌ عن وجوده في الأمَّـة، هذا الوجود الذي يحمل تمامَ الخيريَّة للعالم، وإلى هذا أشـار النبي صـلّى الله عليه وآله وسـلّم عندما قال، «إنَّ الدنيا لا يتمُّ حصولُها إلّا بالعمل الصالح وإنّ شؤم المعاصي يَذهَبُ بخيرِ الدنيا والآخرة»[١٠٤].

٣. **البعـد العباديّ**: يرتبط الزمنُ في الإسـلام بهدَفِ الخلق، ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا

(٩٩) سورة **البقرة**، الآية ٢٧٤.

(١٠٠) **نهج البلاغة**، مصدر سابق، الجزء ١، الصفحة ٧٨.

(١٠١) ابن أبي الحديد، **شرح نهج البلاغة**، تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم (دار إحياء الكتب العربيّة – عيسى البابيّ الحلبيّ وشركاه، الطبعة ١، ١٣٧٨هـ/١٩٥٩م).

(١٠٢) محمد الريشهريّ، **ميزان الحكمة** (دار الحديث، الطبعة الاولى، ١٤١٦هـ)، الحديث ٩٦٤.

(١٠٣) الشيخ المفيد، **الإفصاح**، اللجنة الخاصّة المُشرِفة على المؤتمر العالميّ لألفيّة الشيخ المفيد (مؤسّسة البعثة، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م)، الصفحة ٤٩.

(١٠٤) ابن حجر العسقلانيّ، **فتح الباري** (بيروت: دار المعرفة للطباعة والنشر)، الجزء ٤، الصفحة ٢٦٤.

لِيَعْبُدُونِ﴾[١٠٥]، فمن خلال الزمان يعيدُ الإنسـانُ تواصلَهُ مع الهدف المتمثِّل بالعبادة، ليصلَ إلى مرحلة التقوى؛ يقول تعالى، ﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾[١٠٦]. وهذا الأمرُ يحيل حياة الإنسـان بكاملها سعيًا نحو المُقدَّس، ويكسرُ الفصلَ بين المُقدَّس والـمُدنَّس.

وإذا تفاضـلت الساعات والأيَّام والشـهور، فإنّما التفاضُلُ نَبَعَ من طبيعة اليوم أو الشهر والحدث الذي جرى ويجري فيه، وهذا ما يظهر من خلال التأكيد على أهمّيَّة شهر رمضان وأنَّ أيّامه أفضـل الأيَّام ولياليه أفضل الليالي وساعاته أفضـل الساعات[١٠٧]، وهذا التفاضُلُ ينبـعُ من عنصرٍ ذاتيٍّ يتمثَّلُ في كوْنِ هذا الشـهر شـهد تمامَ النعمة وكمـالَ الدين، ففيه أُنزِلَ القـرآن إلى الخلـق، وفيه ليلة القدر، الّتي يقول عنها الله عزَّ وجلّ، ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ * لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ * تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ * سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾[١٠٨]، بالإضـافة إلى بُعدٍ عباديٍّ يتمثَّلُ في خصوبة هذا الشهر بالتوجُّه نحو الله والتعبُّد له.

٤. **البعد العمليّ**: المتمثِّل في السعي نحو الرزق والعملّ، يقول تعالى، ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا﴾[١٠٩].

وهذه الأبعادُ غير مسـتقلَّة عن بعضـها البعض، إنّما هي تتكامَلُ من أجلِ تأسـيس حياة الإنسـان، فتصـوغُها بكلِّ تفصـيلاتها انطلاقًا من رؤية إلهيَّة تقوم على الوحي، فالإسلامُ لم ينظـر إلى الزمـان كعنصرٍ حياديّ، إنّما رآهُ فعاليّةً إنسـانيّة، تنعكسُ مـن خلاله رؤية متكاملة للإنسان، وانتقال الإسلام من النبوَّة الإعجازيَّة إلى النبوَّة الوحيانيَّة الّتي تقوم على الكتاب، هو تمامُ النقلة الّتي أدخلت الإنسانَ إلى الخلافة التامَّة عبر علاقة لا تنفصم بين الإلهيِّ المتمثِّل بالوحـي المُنزل على الخلق، والذي، ﴿لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[١١٠]، وبين العقلِ القائـم على التعقُّل والتقوى

(١٠٥) سورة **الذاريات**، الآية ٥٦.
(١٠٦) سورة **يونس**، الآية ٦.
(١٠٧) انظر الحديث، الشيخ الصدوق، **فضائل الأشهر الثلاثة**، تحقيق ميرزا غلام رضا عرفانيان (بيروت: دار المحجّة البيضاء، ١٩٩٢)، الصفحة ١٠٨.
(١٠٨) سورة **القدر**، الآيات ١ الى ٥.
(١٠٩) سورة **الإسراء**، الآية ١٢.
(١١٠) سورة **الإسراء**، الآية ٨٨.

والتفقُّه، والذي يجري في الزمان، ويقومُ بربطِ الوحي مع الواقعِ عبر شروطٍ محدَّدة لا تُغلِّب أحدهما على الآخر.

فالوعيُ الإسـلاميّ، عبر طابَعِه الكتابيّ، وعيٌ ذاتـيٌّ تامٌّ مكتملٌ من حيثُ ارتباطُهُ بتمامِ النبـوَّة الخاتمـة الّتي ظهرت علـى النبيّ محمّد صـلّى الله عليه وآله وسـلم، ولكنّه محايثٌ عبر ارتباطِه بعالمِ المحسـوس والواقع، فالنبوَّة في الإسلام تحوَّلت من رؤيةٍ تستحضرُ المقدَّس عبر وسـائط روحيَّة أو مؤسسـاتيَّة إلى رؤيةٍ تُعمِّق في كيان الإنسـان أنَّ العالَم ليس مجالًا منفصلًا عن الإنسان أو أنَّه يُعرَف بالتصوُّر، إنّما هو شيءٌ يُبدَأُ ويُعاد بالعمل المستمرّ. لذلك تُعَدُّ النبوَّة تجسيدًا لمشروع الإنسان الذي يعيشُ الوحيَ بكلِّ تفاصيله وبشكلٍ يوميٍّ عبر الالتزام بالأمر الإلهيّ في العبادات، أمّا في المعاملات فيحضُرُ الوحيُ عبر علاقته بالواقع، والإنسـانُ يدرك هذه العلاقة عبر العقل الاستدلاليّ الاجتهاديّ، ويعمل على تحويله إلى واقعٍ مَعيش(١١١).

انطلاقًـا ممّا ذكرنا، لا يصـبحُ الزمنُ مجرَّدَ تاريـخ، إنّما يتحوَّل إلى فاعليَّة إنسـانيَّة، يتقدَّمُ من خلاله الإنسـانُ في مدارج كماله، وهـو كالدين الذي يحمل الهدف الإلهيّ من الخلق، يعتمدُ على فطرة خاصّـة به متمثّلة بالسـنن الإلهيّة، فكلّما استطاع الزمان – والمقصود هنا الناس الذين يحيَون فيه – أن يتطابقَ مع هدف الإسـلام من الخلق عبرَ تطبيقِ العهد الإلهيّ، كلّما اسـتطاع أن يكونَ زمنًا تامًّا، يحمل في طيّاتـه عناصرَ النجاح، لذلك قال تعالى، ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾(١١٢)، وإذا فقدوا الإخلاص، يعذِّبهم الله؛ ﴿إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(١١٣).

وهذا التكاملُ بين الإنسـان والعمل في الإسـلام، قد لا يصـلُ إلى تمامه بسـبب الطبيعة النفسيّة، لذلك كان الحجّة المهديّ في النصوص الإسلاميّة قائمَ الزمان، الذي يُعيدُ له حقيقَتَهُ الإلهيّة بعدما يضيِّعها الناس بالظلم والاستبداد.

(١١١) محمّـد إقبـال، **تجديـد الفكـر الدينيّ في الإسـلام**، ترجمة عباس محمود (القاهـرة: لجنة التأليف والترجمـة والنشر، الطبعة ٢، ١٩٦٨).

(١١٢) سورة **محمد**، الآية ٧.

(١١٣) سورة **التوبة**، الآية ٣٩.

استنتاج

الزمــنُ في المجتمعيّة الإســلاميّة عبارةٌ عن وعــاء، تجري فيه الأحداث، وهو ليس مســتقلًا بذاته، إنّما يأخذ مشروعيّتَهُ من خلال الهدف التسخيريِّ الذي أوجدَ له، والمتمثِّل في الخلافة الإنســانيَّة علــى الأرض. وهو يعــبِّر عن أخلاقيَّةِ القومِ الذين يعيشــون فيه، لذلك يوصَــفُ بوصفِهِم.

٢. ٢ الزمن في اليهوديَّة

تبــدأ التعاليم التوراتيّة بالحديث عن السرمديّة الســابقة للتكوين، عندما كانت روحُ الله تحلِّقُ فوق الغمر،

> في البدء خلق السماوات والأرض، وكانت الأرضُ خربةً وخاليةً وعلى وجه الغمر ظُلمةٌ وروحُ الله يــرفَّ علــى وجه المياه، وقــال الله ليكن نورٌ فكان نورُه، ورأى الله النورَ أنّه حســن. وفَصَــل الله بين النور والظلمة. ودعا الله النور نهارًا والظلمةَ دعاها ليلًا. وكان مســاءٌ وكان صــباحٌ يومًا واحدًا... وقال الله لتكن نيّراتٌ في جلد السماء بين النهار والليل وتكون لآيات وأوقات وسنين وتكون نيّرات في جلد الســماء لتضــيء الأرض فكان كذلك؛ فصــنع إله النيّريــن العظيمين النيّر الأكبر لحكم النهار والنيّر الأصغر لحكم الليل والكواكب(١١٤).

وهــذه الآيات تركت إرباكًا كبــيرًا، فالبعضُ ذهب إلى اعتبارها نوعًــا من الثنائيَّة، بينما اعتــبر البعض الآخر، أنّ الآية الأولى التي تتحدَّثُ عن الخلق مفصــولةٌ عن الآيات اللاحقة، ويستندون في ذلك إلى قول العهد القديم، «لأنِّي هأنذا خالقُ سماوات جديدة وأرض جديدة فــلا تُذكــر الأولى ولا تخطر على بال، بــل افرحوا وابتهجوا إلى الأبد في مــا أنا خالق لأنِّي هأنذا خالقُ أورشــليم بهجةً وشعبَها فرحًا»(١١٥)؛ وقوله أيضًا، «تنسى الربَّ صانعَك باسط الســماوات ومؤسِّس الأرض وتفزع دائمًا كلَّ يوم من غضب المضايق عندما هيّأ للإهلاك. وأين غضب المضايق»(١١٦). ما يهمّنا في هذا الموضوع أنّ يَهوه في اليهوديَّة أوجدَ العالم الذي يعيشُ فيه الإنسان، ولكنَّه أبقى الزمانَ مُبهمًا قابلًا للتأويل، وحتّى الآيات الّتي تتحدَّث عن خلقه في فترة زمنيَّة محدَّدة، بقيت في حدود الحديث عن الزمن بعد حضــور الفعاليَّة الإلهيَّة في العــالم مــن خلال الخلق. هذا الخلقُ هو الذي أطلقَ الزمــان من خلال وعي آدمَ بوجوده، الــذي ارتبطَ بالاســتجابة لرغبةِ الخالق بمعرفة المُحرَّم والـمُباح. هذا الوعيُ المَعرفيّ اســتبعدَ

(١١٤) العهد القديم، سفر التكوين ١: ١–٦ و١٥–١٨.
(١١٥) العهد القديم، سفر أشعيا ١٧ : ٦٥–١٨
(١١٦) العهد القديم، سفر أشعيا ٥١: ١٤.

الأصولَ المنشئة ليحوِّلها إلى معرفة الذات الخالقة بكينونَتها المتجلّية الآمرة. وما خروجُ آدمَ من الجنَّة إلّا بسبب دخولِه الخطيئة، هذه الخطيئة الّتي أدخلت الدَّنَس إلى وعي آدم، وجعلَتهُ يدخُـلُ في تاريـخ الخطيئة، وكأنَّ التاريخ الإنسـانيَّ عبارة عن نمط متكـرّرٍ كالتالي: خطيئة، عقاب، توبة، خطيئة، عقاب، توبة...من خطيئةِ آدمِ وخروجِهِ من الجنَّة إلى خطيئةِ آل نوحٍ والطوفانِ وصولًا إلى تدمير الهيكل والشتات.

فالزمنُ في اليهوديَّة هو زمنُ مسيرةٍ متكرِّرة باتِّجاه الخلاص النهائيّ في آخر الزمان، حين يستطيع الإنسان اليهوديّ أن يتطهَّر من كلِّ خطاياه، ويعودَ إلى الوعي الصافي بربوبيَّة يَهوِه. بالتالي، هو تاريخٌ تقدَّسَ بحلول بني إسرائيل فيه نتيجةَ مواثيقَ ربطَتهُ بيَهوِه. من هنا لا يوجد زمنٌ خارجَ زمنِ اليهوديَّة وحضورِهِم في العالم. فيَهوِه أعطى الميثاقَ لبني إسرائيل كي يدشِّنوا تاريخَ الإنسـانيّة. لذلك لا نرى تاريخًا إنسانيًّا في العهد القديم، بل نرى زمنًا خاصًّا، تلعبُ فيه الشـعوب أدوارًا هامشيَّة كضـحايا أو جلّادين من أجل بلوغِ الشعب اليهوديّ خلاصَهُ الخاصّ.

فالزمنُ لا يكون إلّا من أجل خلاصِـهِم، فحياةُ المنفى هي العقاب الذي قدَّره الإلهُ على أعضـاءِ هذه الجماعة بسـببِ بُعدِهم عن عبادته الحقيقيّة وبسبب ما يقترفون من آثام. ولذا، فـإنّ اليهودَ يُكفِّرون في المنفى عن ذنوبهم وسيخلِّصُـهُم الإله في نهاية الأمر. لكنّ معصـيةَ جماعةِ يسرائيل هي السببُ في تأخير عمليَّة الخلاص النهائيَّة، أي أنَّ عمليَّة الخلاص مرتبطةٌ بسلوكِهِم، والمصيرُ النهائيُّ للعالمِ يتوقّفُ على مصيرهم.

وقد أصـبحت إعادةُ بناءِ الهيكل واستعادةُ العبادةِ القربانيَّة صورًا أساسيَّةً مرتبطةً بعمليّة الخلاصِ يهتمُّ بها التلمود أيّما اهتمام، كما سـجّل الحاخاماتُ تفاصـيلَها حتّى يُمكنَ القيامُ بها في آخر الأيَّام في لحظة الخلاص. وسـابعةُ الثماني عشرةَ بركةً الّتي تُتلَى في صلاة العميدا تُدعـى 'بركـة الخلاص' لأنّها دعـوةٌ للإله مخلِّصِ يسرائيـل، وهذه الرؤيةُ مختلفـةٌ عن الرؤية المسيحيَّة الّتي ترى أنَّ الإنسانَ كائنٌ ساقطٌ يعاني من الخطيئة الأولى، وأنَّ أفعالَهُ، أيًّا ما بلَغَت من خيرٍ، لا يُمكِنُها أن تأتيه بالخلاص(١١٧).

(١١٧) انظر، عبد الوهاب المسيري وما كتبه عن اليهوديّة، حيث يوضحُ في أكثر من كتابٍ له هذه الفكرة.

استنتاج

الزمنُ في اليهوديَّة هو تاريخٌ لخطيئة اليهود وسعيٌ للخروج منها، لذلك تعيشُ البشريَّةُ الزمنَ بنعمةِ وجودهم [اليهود] ومن أجلِ تحقيقِ خلاصِهم. بالتالي، هو تاريخُ حضورِ شعبِ الله المختار في العالم وسعيِه للخلاص والتطهُّرِ والعودةِ إلى الوعي التامّ والنقيّ بربوبيَّة يَهوه، والإنسانيَّةُ لا يوجدُ لها تاريخٌ بمعزل عن هذا التاريخ المُقدَّس.

٢. ٣. الزمنُ في المسيحيّة

تتَّفقُ المسيحيَّةُ مع اليهوديَّةِ في النصوص التأسيسيَّة، ومركزيَّة الخطيئة، ولكنَّها تُعيدُ تأويلَها على ضوءِ الإيمان الكنسيّ، الذي لا يرى إلى الأحداث السابقة على المسيحيَّةِ إلّا باعتبارها فترةً مظلمةً لم يَعرِف من خلالها الناسُ الإلهَ على حقيقته، فتعرَّفوا عليه من خلال انعكاس نورِه، فالزمنُ لا يُعرَفُ إلّا من خلال حضورِ المسيح عليه السلام، الذي أخرجَ الناسَ من الخطيئة الأصليَّة الّتي ارتكبَها آدم.

فالمسيحُ من خلال حضوره في العالم، قامَ بالتكفيرِ عن الخطيئة، وأعطى الأشياءَ معانيها الحقيقيّة، فالأعمالُ الّتي عملَها في تاريخ الخلاص أوضحت تعاليمَهُ، ووطَّدت مدلولَ كلامه، كما الأقوال الّتي قالَها أشادت بأعماله، وأظهرَت ما فيها من تدابيرَ تفوق الإدراك. «بواسطة هذه المكاشفة، بدأت الحقيقةُ العميقةُ في شأن الله كما في شأن خلاص الإنسان تتجلّى لنا بسناء في المسيح الذي هو وسيطُ كلِّ الوحي وكماله في آنٍ واحد»(١١٨). فتجسُّدُ المسيح وصلبُه أدخلَ الناس في الزمان، فهذا التجسُّدُ صار 'في ملءِ الزمان'، وحوَّلَ الزمنَ إلى عنصرٍ يتقدَّسُ بتقدُّسِ ما يحتويه، فمن خلاله ظَهَرَ كلُّ عملِ الخلق والخلاص، ودخلت أعمالُ الإنسانِ بالتالي في الزمان وفي التاريخ. ومن الثابت أنَّ هذه الحقيقةَ نُطقَ بها مرَّة واحدة في سرِّ يسوعِ الناصريّ. وهذا ما وَرَدَ بوضوحٍ في الدستور العقائديّ 'كلمة الله'، «إنّ الله، بعدَ أن تكلَّم بلسانِ الأنبياء مرارًا عديدةً، وبأساليبَ مختلفة، كلَّمنا في هذه الأيَّام الأخيرة بالابن». فلقد أرسلَ اللهُ ابنَهُ، الكلمةَ الأزليّ، الذي يُنيرُ كلَّ البشر، ليسكُنَ بين الناس، ويطلعَهُم على أعماق الله، فجاءَ يسوعُ المسيحُ كلمةً متجسِّدًا وبشرًا رسولًا إلى البشر، 'ينطقُ بكلمات الله'، ويُجري عملَ الخلاص الذي أعطاهُ اللهُ أن يُتمِّمَه. 'ولأنّ من رآهُ فقد رأى الآب'، جاءَ يسوعُ ليعيشَ بين البشر ويُظهِرَ لهم ذاتَهُ، بأقوالِه وأعمالِه ثمّ بآياته

(١١٨) المجمع الفاتيكانيّ الثاني، **كلمة الله**، الفقرة ٢.

وعجائبه، وخاصّةً بموته وقيامَته المجيدة من بين الأموات وأخيرًا بإرساله روحَ الحقّ، ويُنجزَ هكذا الوحي ويتمِّمَهُ[١١٩]. فالزمانُ في المسيحيَّة هو المجرى الذي يبلُغ فيه الإنسانُ حقيقَتَهُ كاملةً، إلى أن يحينَ لها الوقت، فتتحقَّقَ فيها أقوالُ الله»[١٢٠].

وهكذا يصبحُ الزمانُ هو التاريخُ الذي يتحقَّقُ فيه عملُ الله لخيرِ البشريَّة. ومن خلاله يُلاقي الله الإنسانَ في ما هو مألوفٌ لديه، ولا يصعُبُ عليه التحقُّق منه، لأنَّ التاريخَ هو إطارُ حياتِنا اليوميَّة وبدونه لا يمكن أن يتُمَّ التفاهم. وما تجسُّدُ المسيحُ إلّا دلالةٌ على اقتحامِ الأبديّ للزمان، وجعلِه قابلًا للتفسير.

استنتاج

تقدَّسَ الزمانُ في المسيحيَّةِ من خلال حضورِ المسيحِ المخلِّص فيه، فمن خلاله خاطَبَ اللهُ البَشَرَ وأعطى الأشياءَ معانيها وأصبحَ العالمُ قابلًا للتفسير، من هنا يلعبُ الزمانُ دورًا مركزيًّا في المسيحيّة، لأنّه لم يعد صيرورةً فارغةً من المعنى، إنّما هو تاريخٌ للخلاصِ وبروزٌ للمخلِّص، الذي تجلّى بعد موتِهِ في كنيستِهِ الّتي تحوَّلت إلى جسدٍ للمسيح.

ثالثًا: الزمن في المجتمعيّات القديمة

الزمنُ ظاهرةٌ إنسانيَّةٌ أصيلة، وهو رافَقَ الحضارات الإنسانيَّة منذ وجودِها على هذه الأرض، لذلك حاولت كلُّ حضارة أن تفسِّرَهُ انطلاقًا من رؤيتها الكونيَّة، فكيف نظرت الحضاراتُ القديمةُ للزمن؟ وهنا سنتناولُ عددًا منها، البعضُ منها قد اندرس، وتحوَّل إلى مُجرَّد ذاكرةٍ تاريخيَّة للإنسانيَّة، والبعضُ الآخر ما زال حيًّا فاعلًا.

٣. ١. الزمن في حضارات ما بين النهرين

يحضُرُ الزمنُ بقوّة في نصوص ما بين النهرين في بابل وغيرِها، حيث كانت احتفالاتُ رأس السنة تَشغَلُ حيِّزًا من اهتماماتِ البشر الدينيَّة. وخلال بضعة أيام كان الناس يتفرَّغون لمجموعةٍ من الطقوس تتركَّزُ حول إعادة تمثيل فعل الخلق الأول، والتكرارِ الدراميّ للصراع

(١١٩) البابا بولس الثاني، **الإيمان والعقل**،
http://www.vatican.va/holy_father/john_paul_ii/encyclicals/documents/hf_jp-ii_enc_15101998_fides-et-ratio_ar.html

(١٢٠) **كلمة الله**، مصدر سابق، الفقرة ٨.

البدئـيّ الذي أنتَـجَ الأكوانَ، والتوحُّد مع الزمـن المقدَّس الذي أعطى العـالمَ دفعتَهُ الأولى، واستحضـارِه مرةً أخرى وعيشِـه والذوبان فيـه، في حالةٍ من الانقطـاع الكُلِّي عن الزمن الدنيويّ المعتاد[١٢١]. وهذه التقاليد لم تكن عبثيَّة، إنّما سعى من خلالها البابليُّ إلى إعادةِ تفعيلِ الخلـق عبرَ إعادةِ إنتاجه. فكلُّ شـيءٍ في حياة البابليّين يتعلَّقُ بالإله، من المرض إلى السـعادة والحزن، وبالتالي، لا يمكنُ الوصـولُ إلى حلِّ أيّ مشـكلةٍ من المشـاكل بمعزلٍ عن عناصرها التكوينيّـة، لملاحظة كيفيّة خلقهـا وإعادةِ إنتاجه من جديد، فالزمنُ هو الإله أو حيث تجلَّت قدراتُ الإله، فعندما يمرضُ الإنسـان، شفاؤهُ لا يكونُ من خلال الدواء، إنّما يحتاجُ إلى فهم كيفيَّةِ خلقِ الله له، والقيام بالتعاويذِ المناسـبةِ للخلاص منه، وتشـيرُ التعويذاتُ الّتي وُجدت إلى هذا، حيثُ تروي إحداها كيفيّة تخلُّصِ الإنسانِ من وجع الأسنان، وتقول،

> من بعد أن خَلَق «آنو» السماء خلقت السماءُ الأرض، وخلقت الأرضُ الأنهار، وخلقت الأنهارُ الجـداولَ والقنوات، وخلقتَ الجـداولُ الأهوار، وخلقت الأهوارُ الـدودة. وذهبت الدودةُ إلى الإلـه «شـمش» و«آيا» وبكت وذرفت الدمـوع، وقالت، «ماذا تعطينـي لطعامي؟ وما تعطيني لأمتصَّه»؟ فأجابها آيا، «سأعطيك التين الناضج والمشمش». فقالت، «وما جدوى التين الناضج والمشمش لي؟ ضعني في الأسنان، واجعل مسكني اللثّة، لكي امتصّ الأسنان وأقرض اللثّة وآكل جذورهـا». ويعقب ذلك توجيهُ التعويذةِ على الدودة، «لأنّـك قلت هكذا يا دودة فليحطمنَّك الإله آيا»[١٢٢].

وهذه العادةُ الّتي تقومُ على إعادةِ استحضارِ الزمن البدئيّ للأشياء ليست فريدةً في تاريخ الإنسـانيَّة، إذ تسـعى الكثيرُ من الشعوب إلى هذا الأمر، ولكنّ التميّزَ يمكنُ رصدُهُ في كيفيَّةِ التنظيرِ الدينيّ لفكرة الزمان، حيث قسَّمَ البابليُّون الزمانَ إلى أنواع متعددة:

٣. ١. ١. زمـنٌ سرمديّ: وهو زمن إلهيّ محض، وتروي أسـطورةُ **الإنيوما إيليش**[١٢٣] هذا الأمر من خلال مقدِّمة، تقول،

> عندما في الأعالي لم يكن هناك سماء
> وفي الأسفـلِ لم يكن هنـالك أرض
> لم يكن من الآلهةِ سوى آبسو، أبوهم
> وممو، وتعامة الّتي حملت بهم جميعًا
> يمزجـون أمواههـم معًا[١٢٤]

(١٢١) فراس السوّاح، **مغامرة العقل الأولى** (دمشق: دار علاء الدين، الطبعة ١١)، الصفحة ٢٨.
(١٢٢) طه باقر، **مقدّمة في أدب العراق القديم** (العراق: جامعة بغداد، كلّيّة الآداب)، الصفحة ٨٤.
(١٢٣) **الإنيوما إيليش** أي أسطورة الخلق في البابليّة.
(١٢٤) فراس السوّاح، **الأسطورة والمعنى** (دمشق: دار علاء الدين، ١٩٩٧)، الصفحة ٩٣.

وهــذا الزمن هو زمــنٌ إلهيّ سرمديّ، لا ماهيَّة لــه، وما اختيارُ الماء إلّا في ســبيل إظهار غيابِ التحديد للذات الإلهيَّة، لأنَّ الماء يتشــكَّل بحســب الأشــكال الّتي يوضع فيها، وهو ليس مســتقلًّا بذاته، وعلى الرغم ممّا يُظهِرُهُ النصُّ عن تعدُّد الذات، ولكنَّه ينشــدُ وحدةً في حقيقتــه، لأنّ الثلاثيّ الإلهيّ المؤلَّفَ مــن الأب الأزليّ والأمِّ الأزليّة والابن الأزليّ، لا يوجد فاصلٌ بينهم، وهم غير مستقلّين.

٣. ١. ٢. زمنُ تكوينٍ بدئيّ: وهو زمنٌ تحرّكت فيه العناصر الأولى، فخلقت الآلهة الشباب، الّتي ما لبثت أن ثارت على الآلهة المـُسِنّة، فحوّلتها إلى العناصر الّتي يتألَّف منها الكون، ثمّ أقامت نظامًا، وضعت على رأسِهِ مردوخ الذي انتصر على تعامة، ومع ظهور هذا الجيل تبدأ إرهاصات الزمن، وتصف نهاية اللوح الرابع هذا الأمر، فتقول،

خلق [مردوخ] محطّات لكبارِ الآلهة
أوجَدَ لكلٍّ مثيلَه من النجوم
وحدَّد السنة وقسَّمَ أجزاءها
ولكلٍّ من الاثني عشر شهرًا أوجَدَ ثلاثة أبراج...
ثمَّ أخرَجَ القمرَ فسطَعَ نورُهُ، وأوكَلَهُ بالليل(١٢٥)

٣. ١. ٣. زمنُ تنظيم: وفيه بدأ مردوخ تنظيمَ العالم، فقامَ بتوزيع الآلهة إلى ناظمةٍ للســماء وأخــرى ناظمةٍ للأرض، وخلَــقَ معبد إيزاجيلا ومن ثمّ خلَقَ الإنســانَ من دم تعامةٍ، ليقوم بفعلِ العبادةِ وخدمة الآلهة، تقول الملحمة،

أخَذَ من لُعابِ تعامةَ وخلَقَ منه [...]
خلَقَ منه الغيومَ وحمَّلها بالأمطار...
[تسألُ الآلهة مردوخ]
بعدَ كلِّ ما صنعت يداك، لمن ستُوكِلُ سلطانَك؟
وفوقَ الأرضِ الّتي ابتدَعَتها يداك،
لِمن ستوكلُ حكمَكَ؟

٣. ١. ٤. زمنٌ تاريخيّ: وهو زمنٌ هامشيّ، لا يكتسبُ مشروعيَّتَهُ الوجوديّةَ إلّا من خلالِ فهــم هدف خلق الإنســان – والمتمثِّل بمســاعدة الآلهة وخدمتها من أجل اســتمرار النظام الذيَ نشأ بعد الانتصــارِ على الفوضى السكونيّة الكونيّة المتمثِّل بتعامة، هذه الفوضى الّتي تُشكِّل مادَّة الخلق، والّتي إذا أُهملت قد تعودُ إلى الحياة لتنتقمَ لنفسها. من هنا تأتي الملحمةُ لبثِّ الروحِ الطقســيِّ الذي يُعيدُ إنتاجَ الحادثة الكونيَّة، ليُثبتَ فعلَ الانتصــار ويثبِّت نتائجه

(١٢٥) **الأسطورة والمعنى**، مصدر سابق، الصفحة ٩٥.

ومعنــاه، وذلــك كلّه، «مســاعدة من العبادة لآلهتهــا في المعركة الدائرة مع قوى الفوضــى والعمــاء. فالمعركةُ البدئيَّة لم تحدث مرّةً واحدةً وكفى، بل هي معركةٌ متجدِّدة، يُشــارك بها البشر طقسيًّا، فيشدّون أزرَ آلهتهم ويعطونها سندًا ومددًا»[١٢٦].

استنتاج

الزمنُ في النصــوص البابليّة القديمة، هو زمنٌ قدسيّ، لا وجودَ للبشر فيه إلّا كعبيد، يقومون بالأمر الطقسيّ للمحافظة على النظام، وحتّى لا يعود الكونُ مرّةً أخرى إلى مرحلة الفوضى والعماء السكونيّ.

٣.ب. الزمن في الزرَدشتيّة

ينقسمُ الزمنُ في الزرَدشتيّة إلى أقسامٍ متعدِّدة:

٣. ٢. أ. زمنٌ بدئيّ غير مُحدَّد، توجدُ فيه الكينونات الوجوديَّة بذاتها لا شــيء معَها، وهذا الزمن، يقسَّم إلى نوعين:

٣. ٢. ١. ١. زمــنٌ بدئيّ تــامّ: لا يوجد فيه إلّا أورمــازد،[١٢٧] وأهريمان[١٢٨]، وكلٌّ منهما يعيش في عالمٍ مســتقلٍ عن الآخر، وتقــول **الأفستا**، «كان الفراغُ يمــلأ بين المكانين، 'مكان الدمار والظلمات'»[١٢٩]. وهذا الزمنُ هو زمنٌ سرمديّ لا تُعرَفُ بدايتُهُ، وفيه كانت كلُّ قوّةٍ تعيش كينونَتَها الخاصّة بها، لا تتنبّه للأخرى.

٣. ٢. ١. ٢. زمــنٌ بدئيٌّ إدراكيٌّ: بدأ عندما تنبَّــه أهريمان إلى النورِ المـُنبعث من أورمازد، فحنق من طهارته، وحاول أن يقضي عليه؛ تقول **الأفستا**،

> لم يعــرِف أهريمان لجهلــه بوجود أورمازد، وبعــدَ أن نَهَضَ من الهاوية ولَــجَ إلى النور الذي رآه، وبســببِ طبيعته المدمِّرة والغيّورة ســارَعَ بتدمير نــور أورمازد... وهو رأى أنَّ شــجاعةَ وتفوُّقَ أورمازد أكثر بكثير من شــجاعته وتفوُّقه، فهَرَبَ إلى الغياهــب والظلمات، وهنالك خلَقَ الكثيرَ من الأبالسة والشياطين، ومخلوقات مدمِّرة من أجل الترهيب والهلاك[١٣٠].

(١٢٦) **مغامرة العقل الأولى**، مصدر سابق، الصفحة ٢٨.
(١٢٧) إله الخير في الزرادشتية، وهو ثابت وغير متناهٍ في الزمن، وهو كائنٌ ويكون وسيظلُّ دومًا.
(١٢٨) إله الشر، الذي كان ويكون ولكنّه لن يدوم.
(١٢٩) **أفستا: الكتــاب المقدّس عند الزرادشتية**، إعداد الدكتور خليل عبد الرحمن (دمشــق: دار الروافد، بنداهشــين) الفصــل ١، الصفحة ٧٩٤.
(١٣٠) المصدر نفسه، الصفحة ٧٩٥.

وهذا الزمنُ الإدراكيّ، شهِدَ صراعًا بين نزعتين، الأولى تُحاولُ أن تثبِّتَ الواقعَ على ما هو عليه، والثانية تتحكَّم بها روح الاستئثار، وتحاولُ تدميرَ العناصر الخيِّرة. وتتمثَّلُ أهميَّةُ هذا البُعد في الطابَعِ الإدراكيِّ للكينونات، حيثُ أدرك الخير والشرُّ ماهيَّتَهُما.

٢ . ٢ . زمنُ الحركة وتقرير النهايات: وهو الزمن الذي حاول فيه أورمازد تفادي الصدام مع أهريمان، فقامَ بإقناعه بتحديد فترة زمنيَّة مُحددَّة للصراع مُدَّتها تسعةُ آلاف سنة، فوافق أهريمان بسبب غفلَتِهِ وتَسرُّعه، فهو لم يُدرِك أنَّ نهايةَ هذا الزمن، ستحملُ معها نهايَتَهُ الحتميَّة؛ تقول **الأفستا**،

> عرِف أورمازد بفضل معرفَته الكُلِّيّة أنّه في خلال هذه التسعة آلاف سنة، فإنَّ ثلاثةَ آلاف منها ستجري حسبَ إرادَته، وثَلاثة آلاف سنة أخرى تكون فترة اختلاط إرادتهما، وفي الثلاثة الأخيرة فإنّ أهريمان سيضَعف ويتوقَّف عن الصراع(١٣١).

٢ . ٣ . زمنُ الصراعِ والسعي: وهو الزمنُ الذي تلى الاتّفاق، حيثُ أخَذَ كلٌّ إله بخلقِ الأشياء الّتي تنتمي إليه، فخلَقَ أورمازد العناصرَ الخيِّرة وكان آخرَها الإنسان، تقول **الأفستا**،

> قام أورمازد [...] بأداء طقس روحانيّ، وبهذا أسّس لوسائل جمّى وضروريّة لتحطيم العدوّ، تشاوَرَ مع الوعي وفرافاشي حكماء الناس، ومع الحكمة الكلّيّة القائدة، فظهَرَ للنّاس، وقال، 'ما هو الشيء الأفضل والمحبّب لديكم لأنفِّذَهُ لكم في هذه الدنيا: أأدعكم مع أجسادكم تقاتلون أهريمان وترونَهُ قد تحطّم، [وفي النهاية] أجعلُكم معافينَ فأعيدُكُم إلى العالم خالدين إلى الأبد، لا تهرَمون ولا يصيبُكم أذى، أو أضطرّ أن أدافعَ عنكم ضدّ العدو دائمًا أبدًا'؟ حينَها وافَقَ أعداء الكذب على الحكمة الكلّيّة القائدة، وليلحق أهريمان بهمّ الشر، ولكن في النهاية يظهرون على الأرض ثانيةً من دون منافسين وأعداء، معافين، خالدين ومتجسِّدين إلى أبد الآبدين(١٣٢).

وخلق أهريمان العناصرَ الشرِّيرة ومنها الكذب والخداع والثعابين، وبدأ معرَكَتَهُ بالقضاء على مخلوقات أورمازد وتحطيمها، لذلك فالعالَمُ الذي نعيشُ فيه هو عالَمُ صراع وتدافُع، يُشارِكُ فيها الإنسانُ بالمعركة نتيجةَ إرادة حرَّة بغيةَ القضاء على الشرّ، لذلك عليه أن يعمَلَ بشكلٍ مستمرٍّ للوصول إلى هذا الهدف، وبالتالي يُعتَبَرُ العملُ هدفًا بحدِّ ذاته، فمن خلال العمل يتقدَّسُ الإنسان ويتشبَّه بأورمازد؛ تقول **الأفستا**،

> مهما حدَثَ ومهما كان، دعْهُ يرضي ويفرح الإنسان [الصالح]، لكي يحميه أورمازد من الأشرار. لأنّ الإنسانَ الصالحَ مثيلٌ للإله أورمازد، فعندما يقوم بفعلٍ [هذا يعني] أنّ أورمازد يقوم من خلاله. المجدُ والطيبةُ لذاك الذي يُرضي الصالح، سيبقى على الأرض طويلًا، وجنَّةُ

(١٣١) **أفستا**، مصدر سابق، الصفحة ٧٩٦.

(١٣٢) **أفستا**، مصدر سابق، الصفحة ٧٩٧.

ونورُ أورمازد والسعادةُ والطمأنينةُ ستكون له[١٣٣].

فالزمن في الزرَدشـتيّة هو زمنُ عمل، فأورمازد من خلال العمل الذي قامَ به، ظَهَرَ بكلِّ جبروتـه وعظمَته، وهو ما أثارَ ردَّةَ فعلِ أهريمان. من هنا رفض الزرَدشـتيّون مفهومَ الزُّهد؛ وإذا ما انسحبَ المرءُ من العالم، فإنّه بذلك ينبُذُ عالمَ الخالق، من هنا كان الزهد خطيئةً كبرى، مثَلُه كمَثَلِ الانغماسِ في الشهوات، وعلى الرجال واجبٌ دينيٌّ يفرض عليهم أن تكونَ لهم زوجـة وأولاد، حتّى يزيدوا من أتباع ديانة الخير، وليكونوا من المؤمنين بالأفعال المقدَّسـة، كذلك حرْثُ الأرض وفلاحتُها ورعيُ الماشية... ولمّا كانت الصحّة هبةً من الخالق، فإنَّ على جميع البشر أن يعملوا على التمتُّع بها ويكونوا أقدَرَ على القيام بالأعمال الصـالحة، فالعملُ ملـحُ الحيـاة... وإلى جانبِ العملِ، لا بدَّ مـن الفِكر، حتّى يُمكَنَ قهرُ الشـكوك والرغبات السيِّئة[١٣٤].

استنتاج

الزمنُ في الزرَدشتيّة هو زمنُ صراعٍ بين قوى الخير والشر، والإنسانُ يشارِكُ في هذه المعركة من خلالِ منعِ العناصر الّتي تحمِلُ بطيّاتها الشرَّ من التسلسـل إلى الأرض، وبالتالي فهو عليه القيـامُ بالأعمال الأخلاقيّة، ويبتعدُ عن كلِّ ما يسـيء إلى جسـده والعـالم المحيطِ به، وهذا السببُ هو الذي دفَعَهُم إلى رفضِ دفنِ الموتى في الأرض لأنَّ الجثَّةَ تُسبِّبُ النجاسة للتراب.

فكلُّ الأمور تُعدُّ لليوم الآخر، حين يقفُ الإنسـانُ يـومَ البعث أمام أورمازد، ويُعادُ إليه جسدُهُ وتحضُرُ أعمالُهُ الصالحةُ والسيِّئة، ويحاسَبُ على كلِّ عَمَل، ثمَّ يطهُر بالمعادن المشتعلة، الّتي سيُصهَرُ فيها أهريمان، تقول **الأفستا**،

[ستُذابُ في المعدن المنصهر كلُّ الأعمال الشرِّيرة]، وكذلك الروائح الكريهة والأوساخ [...]، وسيسـقُطُ أهريمان أيضًـا في هذا المعدن المنصهر، سـيأخذ [أورمازد] أرضَ جهنَّم لتوسيع العالم، وسينبعثُ العالمُ حسبَ إرادَتِه، والعالمُ سيصيرُ خالدًا إلى أبد الآبدين[١٣٥].

٣. ٣. الزمن في الديانات الهندوسيّة

تقومُ الهندوسـيّةُ على نظريّة وحدةِ الوجود، بالتالي فالخالقُ هو كلُّ شيء، وليس في الوجود

(١٣٣) **الأفستا**، مصدر سابق، فصل 'باسم الربِّ الخالق'، الصفحة ٨٣٦.
(١٣٤) كامل سعفان، **معتقدات آسيويّة** (القاهرة: دار الندى، الطبعة ١، ١٩٩٩)، الصفحة ١٢٣.
(١٣٥) **الأفستا**، مصدر سابق، جوهر البعث، الصفحة ٨٢٧.

إلّا الله؛ تقول **بهغفض غيطا**، «من الأحرُف أنا الحرف «أ»، ومن الكلمات المركّبة أنا الثنائيّ. أنا أيضًـا الزمانُ الذي لا يفنى، ومن الخالَقين أنا «برهما» الذي تشخَّص أوجهه المتعدّدة من كلِّ الجهات»(١٣٦).

وهذا الكلام يدلُّ بوضوحٍ على وحدة الوجود، فالألفُ هي الأصل الّتي تصدر منه كلُّ الحروف، فهو بداية الصوت، وهو الزمانُ لأنّه القاطعُ القاتلُ لكلِّ شيء، فبراهما هو الروح الكلّيّ، والوجود المُطلق، فهو سيِّدُ كلِّ ما كان، وكلّ ما سيأتي. إنَّه في الوقت ذاته، هذا اليوم والغد. وعندما تجلّى كريشنا إلى أرجون في صورةِ إله كونيّ، أعلن قائلًا، «من كلّ الخلق أنا البداية والوسط والنهاية، يا أرجون، ومن العلوم أنا علمُ الذات الروحيّ، ومن علماء المنطق أنا الحقيقةُ الحاسمة»(١٣٧). توضِحُ هذه الآية أنَّ الكونَ في كلِّ مظاهرِه الظاهرة والمستترة، وكذا الروحُ في كلِّ أوضاعها المشروطة وغير المشروطة، يرجعان إلى البرهما.

فالزمنُ، شأنَ الأبديَّة، هما وجهان لمبدإٍ واحد. ندلُّ عليه بالقول في البراهما، اللحظة الحاضرة المتحرِّكة واللحظة الحاضرة الثابتة تتطابقان، أي أنَّ الزمان في البراهما هو ثابتٌ ومتحرِّك، في الآن ذاته؛ يقول براهما لأرجون، «علاوة على ذلك يا أرجون، أنا بذرةُ الموجودات كلّها، ولا يوجد شيءٌ – متحرِّكٌ أو ثابت – بدوني»(١٣٨). وهذه المفارقة تجعل الزمنَ ينقسم إلى قسمين، يقول نصّ فيدي، «إنَّ المرحلةَ الّتي تسبق شروقَ الشمس هي من دون زمانٍ ولا تقبل التجزئة. لكن ما أن يبدأ شروق الشمس حتّى يكون الزمان الذي يقبل القسمة والتجزئة، ويأخذ شكلَ السنة»(١٣٩).

والكلام السابق، يذهب إلى زمانين، زمن الديمومة وزمن الصيرورة والتحوُّلات الدائمة، في كلٍّ منهما شمسٌ مشرقة، الأولى لا يعيشُها إلّا الحكيم، تظلُّ الشمسُ ثابتةً لا تتحرّك، بعد أن تشرق، وحيدةً في الوسط، فالإشراقُ الذهنيُّ والفهمُ يحقِّقان معجزةَ الخروجِ من الزمان، والانتقال إلى العيش فيه.

أمّا الثانية، فهي شمسُنا، الّتي تمثِّلُ عالمَ الصيرورة والتحوُّل، وهُما، وعلى الرغم من اختلافهما، يُمثِّلان وجهان لحقيقةٍ واحدة، غيرَ متبادلة، وهي حقيقةُ براهما الّتي يجب أن

(١٣٦) **بهغفض غيطا**، تعليق ا.س. بهكطي فيدانت سوامي بربهوباض، ترجمة رابح يونس (بيروت: دار كتب بهكطي فيدانت، ١٩٧٢)، الآية ٣٣، الصفحة ٥٢٤.

(١٣٧) **بهغفض غيطا**، الآية ٣٢، الصفحة ٥٢٣.

(١٣٨) **بهغفض غيطا**، الآية ٣٩، الصفحة ٥٢٩.

(١٣٩) ميرسيا ايلياد، **صور ورموز**، ترجمة حسيب كاسوحة (دمشق: وزارة الثقافة السوريّة، ١٩٩٨) الصفحة ١٠١.

يتوجّه إليه الإنسانُ للاتّحاد به، وهذا لا يتمُّ إلّا عبرَ التأمُّلِ التجاوزيِّ المبنيِّ على تجاوزِ الشرط البشريّ والاندماج بالنظام الكونيّ القاهر للزمان.

فهذا العالـمُ الذي نحياه، ليس حقيقةً واقعيّة، إنّما هو قاعدةٌ للوصول إلى مرحلة الوعي، هذا الوعي الذي يُخرِجُ الإنسانَ من سلسلة الولادات والموت إلى الوحدة مع المطلق. من هنا تصبح الحياةُ لحظةَ انطلاقٍ وتحرُّرٍ يقوم بها الإنسان بشكلٍ قصديّ لتحقيق غايات متعدِّدة:

١. إيجادُ التماثل مع الزمان الكونيّ، ليصبحَ الزمانُ الخاصُّ جزءًا منه، وهذا لا يتمُّ إلّا من خلال رياضةٍ تُماثِلُ بين نوبات تنفُّسِ القاصد وبين الزمان الكونيّ الكبير.

٢. استردادُ المدِّ الزمانيّ الماضي المعروف باسم سارا، بمعنى أنّه يعودُ إلى الوراء، ليحيا من جديد حيواته السابقة ليحرِقَها، ويتخلَّصَ من نتائجِها الكرميَّة، الّتي تتمثَّل في الدورات الكونيَّة المتكرِّرة.

٣. توحيدُ الأضداد، فالتجرُبة الّتي يعيشها الهندوسيّ، فزفيرُ الإنسان يُقابِلُ القمرَ وشهيقُهُ يماثلُ الشمسَ، والتحكُّم بهما يؤدّي إلى التحكُّم بإيقاع الزمان،

> وهذا التوحيد المنطوي على المفارقة، والذي يجمع الوريدين الروحانيّين «أيدا» [القمر] و«بنكالا» [الشمس] مع التيّارين القطبيّين [تيّار الطاقة الجسميّة وتيّار اللطاقة الحيويّة]، إنّما يضاهي توحيدَ الشمس والقمر، أي فناءَ الكون المُنظَّم، وإعادةَ اندماج الأضداد. هذا الأمر يَحملُ على القول بأنَّ مُمارس اليوغا يتعالى، في الآن ذاته، على الكونِ المخلوق، وعلى الزمان الذي يحكم مسيرةَ ذلك الكون(١٤٠).

استنتاج

الـمُطلق هو الزمان في الهندوسيّة، فهو كلُّ شيء ولا شيءَ خارجُهُ، ومهمَّةُ الإنسان إيجادُ التجانس معَهُ والخروجُ من زمن الصيرورة والتحوُّل، الذي يعيش فيه. والفردُ الهندوسيّ، يبذل جهدَهُ من أجل تعديلِ ما تحت الشعور، ليجعلَهُ في النهاية، نقيًّا صافيًا، وليعملَ على إحراقه وعلى تدميره، إنّما يستهدف إنقاذَ نفسه من عمل الذاكرة، أي أنّه يعملُ على إلغاء فعلِ الزمن المتغيِّر للدُّخول في الزمن الكونيّ الثابت.

(١٤٠) صور ورموز، مصدر سابق، الصفحة ١٠١.

خاتمة

الزمــنُ في المجتمعــات الدينيّة، ليسَ عبارةً عن وحــدات فيزيقيّة تُقْسَّــمُ إلى أيّام وشــهور وســنوات...، إنّما هو جزء لا يتجزّأ من المنظومات الدينيّة يتبعُها، ويتحرّكُ في إطارِها العامّ. كما أنَّ الزمنَ ليس بالضرورة عبارة عن دورة حادَّة تُقسَّم إلى ثلاثة أقسام، زمنُ كوسموغونيّ وزمــنُ تنظيم وزمنُ، كما أشــار إلى ذلك الباحث ميرســيا إيلياد، والّتي أراد أن يوضــح من خلالها أنَّه تعبيرٌ عن حنينٍ إلى العَوْدِ الأبديّ، الذي يرتبطُ بالحنين إلى الأصــول، إنَّما هو جزءٌ من فهم الإنســان والمنظومةِ الّتي يتبع لها، لذلك لا تخلــو نظريّة دينيّة من رؤيةٍ متكاملةٍ عن الزمان. وهي، وإن اشتركتَ في التسمية، ولكنّها اختلفت في الفهم والمقصد.